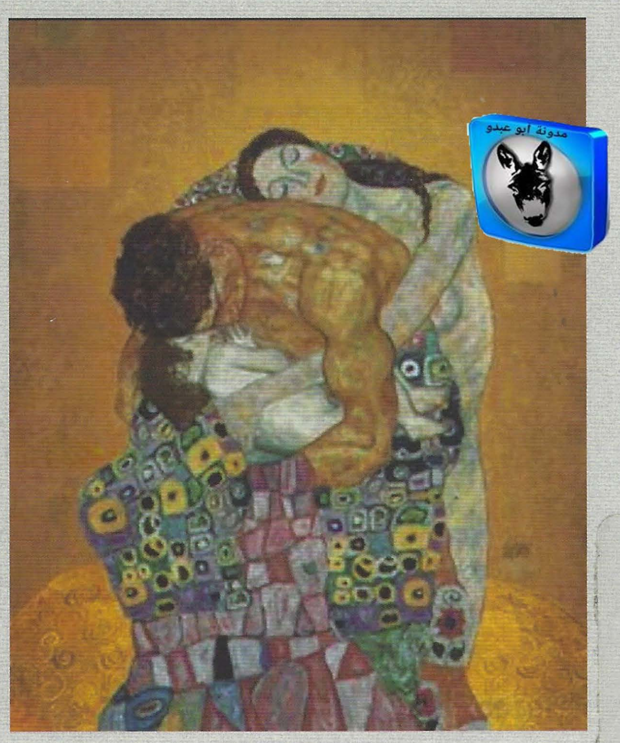
HADIYA [illegible] N


NOVEL

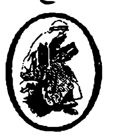
هدية حسين

ما سيأتي





ما سيأتي / رواية
هدية حسين / مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى، 2017



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بيروت – لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف: **ديمو برس** / بيروت، لبنان
لوحة الغلاف: **غوستاف كليمت**/ النمسا
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس** / بيروت، لبنان

الترقيم الدولي: ISBN: 978-614-419-782-0

رواية
NOVEL

هدية حسين

ما سيأتي



قال أحد الحكماء :

ما يؤلم الشجرة ليس الفأس . . ما يؤلمها حقاً أن يد الفأس من خشبها .

سأفتح ألف باب لكي أصل .

هذا ما قالته نرجس في داخلها بعد أن زمّت شفتيها بإصرار ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تتهيأ لرحلة الهروب الطويلة المضنية ، الرحلة التي فتحت لها أبواباً أخرى لم تعرفها ، ووضعتها وجهاً لوجه أمام حياة لم تألفها من قبل .

لم تكن متيقنة تماماً من نتيجة ما هي مُقدمة عليه ولم تكن على قدر من التماسك لحظة قررت الهروب ، كانت مشوشة ، لكنها مدفوعة بزخم الحب ، والخوف معاً ، عازمة على ما سعت إليه ، أن تسعى من أجل الوصول الى شيء خير من أن تجلس بانتظار لحظة موتك بفعل فاعل لا بين يدي ملك الموت .

وعندما حان الوقت رتبت أغراضها في الحقيبة ، حقيبة متوسطة الحجم وضعت فيها ثلاثة قمصان وكوستم وتنورتين ودشداشتي نوم ومنشفة ومتعلقات حمام وفرشة أسنان مع علبة التنظيف وألبسة داخلية . . زررت قميصها ، ومشطت شعرها أمام المرآة ثم رفعته ذيل حصان ، ناظرة الى وجهها الذي اكتسى بالصرامة في تلك اللحظات الفاصلة بين حياة وضعت حداً لها ، وحياة مغايرة لم تذق طعمها بعد ، لعله طعم الشهد

أو طعم الحنظل ، وكانت مستعدة أن تتجرع الحنظل ، أو حتى السم ، من أن تبقى أسيرة حياة قاحلة يتربص بها الخوف من كل جانب .

قبل ذلك كانت قد باعت بيت أمها المهجور بعد أن ورثته لتمول رحلتها المحفوفة بالمخاطر ، دفعت المبلغ المتفق عليه مع محسن العلوان ، وستدفع مبالغ أخرى إن تطلّب الأمر ذلك حتى تصل غايتها . . فلماذا هربت نرجس ، وإلى أية غاية سعت ، وأين وصلت ، وماذا كانت تروم؟

***

كان الخيط الأبيض قد تسلل رويداً وأزاح الخيط الأسود من الفجر ، صوت مؤذن الجامع يدعو الناس للصلاة ، وعبارة (الصلاة خير من النوم) تتكسّر وتتموج بصوته الجهوري ، وهي لم تذق طعم النوم ، ولم تشعر بخشوع طالما تأتي الدعوات بصوت نزيه الأمين ، إمام الجامع الذي لاترى فيه نرجس نزاهة ولا أمانة ، نظرت من النافذة العلوية المطلة على الشارع حتى مر جميع المصلين باتجاه الجامع وخلا الشارع من المارة ، كان زوجها غاطاً بنوم ثقيل في الغرفة الثانية بعد سهرته الأسبوعية ، شخيره يعلو ويتسلل خارج غرفة النوم كالعادة ، وبجموح فرس لا تريد الثبات على أرض تسللت من البيت مستنشقة هواءاً ملوثاً بالطوز الأصفر .

يوم أمس تعكّر مزاج الصحراء فغضبت ونفخت أنفاسها

غباراً كثيفاً غطت به موجودات الله من البشر والحيوانات والنباتات ، وغزت البيوت والشوارع ، ضربتها بموجات الرمال والأتربة وانخفضت الرؤية الأفقية فبهتت ألوان المدينة ، ثم هدأت وأبقت على غلالات الغبار التي ماتزال تغطي الفضاء .

ثمة كائن لا مرئي وغير محدد المعالم يدفعها بقوة مستعيراً صوت امها الذي يأتي من وراء الغيب : إلى أين يا نرجس؟ لكنها لا تلتفت ، ما عاد ذاك الصوت يوقفها ، ولم تشعر بالأسف على ما خلفته وراءها ، تعرف أن ألسنة باشطة ستطعنها في الظهر ، لكن الأمر لم يعد يهمها ، لقد رمت كل المحتويات في سلة مهملات الماضي وبدأ زمنها ، زمنها غير الواضح بما يكفي ، لكنه يكفي بقليل من الصبر أن يقول لها حان دورك لتأخذي زمام مصيرك بيدك وسنكون معاً في الطريق بخيره وشرّه .

تعرف بأنها ستتعب ، وهي وحدها من تتحمل وزر متاعبها في تلك الرحلة التي قذفتها الى طرق غريبة لم تكن وطأتها من قبل ، وليس من أحد فيها يخصها سوى ذلك الرجل الذي ما يزال يسكن رأسها ويرافق خطواتها ولا تدري إن كان حياً أو ميتاً ، وحدها من دون رؤية واضحة واجهت ، بمغامرة أو مقامرة ، مصيرها المغزول من خيوط التعب والمجهول ، وإلا ما معنى الحياة من دون مجازفة في سبيل غاية؟ ستمضي الى غايتها ،

متسلحة بمقولة : لا يوجد مصير إلا الذي نصنعه بأيدينا .

والغاية تبرر الوسيلة ، لكن بأية وسيلة ستصل غايتها؟ نعم ، تتذمّر أحياناً ، ويتسلل اليأس الى نفسها ، ويمزق الخوف قلبها ، لكنها في آخر الأمر تشد من أزرها ، وتشحن نفسها بالصبر ، وتطمئن الى خيارها ، وتتبع النبع الذي تفجّرت عيونه في قلبها لتدرك المصب .

فما الذي كانت تنشده نرجس وسلكت من أجله الطرق الوعرة المحفوفة بالمخاطر؟

يسيل الضوء شيئاً فشيئاً مُزيحاً ما تبقى من سواد الليل ، قبل أن تسبقها الشمس ، عند الخامسة والنصف فجراً ، وطبقة غبار تغلف الأجواء ، كانت نرجس في كراج النهضة ، تركن حقيبة سفرها الى جانبها ، مبرزة الشريط الأبيض في مقبضها كعلامة للدليل الذي سيقودها في رحلة الهروب . . تنظر في الوجوه التي تمر ، أو التي تتخذ أماكنها لبدء يوم جديد ، نساء جنوبيات يفترشن الأرض ويبعن القيمر والعسل ، عربات صغيرة يصف عليها أصحابها بضاعتهم ، شحاذون يتخذون أماكنهم بانتظار الأيدي التي ستمتد لهم ، جنود كثر يرومون الوصول الى ثكناتهم العسكرية لمواصلة الحروب التي لا تنتهي ، لابد من إدامتها بهذه الأجساد التي انتزعت من أحضان الامهات والزوجات والأماني المؤجلة ، وجوههم مكتظة بالهموم ، لم يشبعوا من الدنيا بعد ، شبعوا من القهر ، أزكم أنوفهم البارود وشطبت الحرب على أحلامهم ، إنهم بلا شك بانتظار حرب أخرى ، كم منهم سيعود ، وكم منهم سيفقد أحد أعضاء جسمه فيبقى معوقاً طيلة ما سيأتي من عمره ، وكم واحد منهم سيُمحى اسمه من أوراق التقويم؟ وآه يا بلد النفط الوفير والجوع الأكثر وفرة ، متى تنتهي حروبك؟

الوقت يطحنها ، يتمدد حتى لكأنه دهر ، يتلاعب بها ، يطش عليها حزمة توجسات ، إنها تنتظر شخصاً بعينه لم يسبق أن رأته من قبل ، كل ما تعرفه أنه رجل قصير القامة ، يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً مقلماً باللونين الأسود والأبيض ، اسمه أبو عاصم ، هو الذي سيأخذها الى خانقين ، هذا ما قاله لها محسن العلوان ، العتيد في التهريب الذي يعرف زواغير الطرق عند المخاطر ، وأضاف : لا تكلميه أثناء الرحلة حتى يبادرك هو بالكلام .

لم تسأله كيف سيتعرف عليها ، لأنها ما إن همت بتحريك شفتيها حتى قال لها كأنه يقرأ ما يدور برأسها : هو الذي سيهتدي إليكِ ، احملي حقيبة واعقدي شريطاً أبيض في مقبضها ، وارفعي شعرك ذيل حصان واعقديه بشريط أبيض أيضاً ، قفي قريباً من صف بائعات القيمر والشاي ، هذا كل ما عليك أن تقومي به ، وقبل أن تتبعيه اسأليه لمزيد من الحيطة عن اسمه .

كأن عقارب الزمن لا تسير الى أمام ، بل تعود الى الوراء لتجد نفسها بين فكي كماشة ، ماذا لو اكتُشف أمرها؟ أية أسباب ستسوقها لتبرر هروبها إذا ما أمسكوا بها وأمطروها بالأسئلة؟ لماذا لم تبلغ الجهات الأمنية عن خروجها من المدينة بعد أن وقعت على تعهّد يلزمها بالبقاء؟ من الذي حرضها؟ الى أين تمضي وماذا تبغي؟ لصالح أية جهة تعمل؟ من هو أبو

عاصم وأية رسالة تحمل معها لإيصالها الى الأعداء؟

تكاد الأسئلة المفترضة تشج رأسها وتشظيه ، وما زالت تقف في كراج النهضة ، تنظر من حين لآخر الى ساعتها وتبحث في الوجوه ، وهي تدرك بأن هروبها على صعيد آخر سيفعل فضيحة مدوية في مجتمع مغلق يبحث عما يتسلى به ، فضيحة تجد من يتناقلها على الشفاه لفترة طويلة ، وسيزيدون عليها إشاعات ويحولونها بالتكرار الى حقائق ، لكن ماذا عليها أن تفعل غير ذلك؟ هل ستذبل وتموت كل يوم لمجرد إرضاء الناس ، أم تنتظر مصيرها في دهليز من دهاليز السجون السرية؟

أمرها لا يهم سوى زوجها مؤنس الشاعر ، وهي لا تخشاه ولا تحسب حسابه إن علِم بهروبها الذي لا تسميه هروباً ، بل هو بحث عن حقيقة غائبة وبحث عن حياة حلمت بها فلم تعشها وعليها أن تبحث عنها في مكان آخر ، وحتى لو علم فهو لا يمكنه أن يصدّ رياح جموحها ، لقد تقطعت بهم سبل المواصلة تحت سقف واحد ، وأجبرته في واحدة من شجاراتهما الكثيرة على رمي الطلاق شفهياً ، لأنها تعلم بأن حبال المحاكم طويلة ومضنية ، وقد داهمها قرار رحيلها بعد أن لمحت خيطاً شحيحاً من ضوء ستهتدي به ، خيط واهن مغزول بأمل زئبقي لم يترك لها خياراً آخر ، ولن يوخزها ضميرها إزاء الزوج الذي تراجع عن قراره بعد دقائق من رمي يمين الطلاق وحاول بطرق

شتى أن يعتذر منها فرفضت اعتذاره ، قرار اتخذه الزوج في لحظة انفعال ، لكنه من صنعها ، هي التي استفزته واستدرجته فرماه متسرعاً ، كأنها كانت تنتظره منذ أول يوم تزوجته فيه ، ما يهمها الآن أنها في حل أمام الله من هذا الرجل الغريب عن جسدها ، الرجل الذي هو زوجها أمام الناس فقط ، ولم يعد لأمها التي ورطتها بهذه الزيجة أي سلطان عليها ، ذلك أنها شبعت موتاً منذ عدة أشهر ، ولا سلطة عليها من الأقارب الذين تقطعت بينها وبينهم السبل منذ مقتل أبيها في الحرب .

خوفها الحقيقي الذي صعّب عليها احتمال الوقت وهي تقف في كراج النهضة هو شيء آخر ، متعلق بسلطة البلد ، السلطة التي تطبق بملايين المخالب على حياة الناس لدرجة يخاف فيها المرء من الكلام بصوت عالٍ حينما يتكلم بالسياسة لكي لا يسمعه جاره ، أو ينقل أحد أفراد الأسرة ما يسمعه للجهات الأمنية التي يعمل فيها سراً ، فإذا اكتشفت الغاية من وراء رحلتها فستكون هي في مهب ريح لا تعلم أين ستلقي بها ، وأي عذاب ستحتمله لكي لا تعترف بالسبب الذي من أجله سلكت طريق الهروب بعد أن وقعها ضابط الأمن على ورقة تجبرها أن تدلي بمعلومات إن استجد شيء يتعلق بيوسف حسن عمران ، وتجبرها على البقاء في المدينة ، وإذا ما قررت السفر الى مدينة أخرى فعليها أن تُعلِم الجهات الأمنية بذلك وتبين الغاية من سفرها .

بعد طول وقت بدا لا نهاية له ، انتشلها من حيرتها صوت الرجل القصير ، صوت رفيع كأنه يخرج من قصبة تعبث بها الريح ، وقف الى جانبها ولم يلتفت إليها حين قال : السيدة نرجس؟ كأن أنفاسها توقفت حين سمعت اسمها واضطرب وقع نبضها ، ألقت عليه نظرة عجلى ، بدا لها أكثر شبهاً بالقزم منه الى القصر وضائعاً في قميصه المقلم الفضفاض وبرأس ملتصق بين كتفين متهدلين ، وشعر أسود كثيف كأنه شعر مستعار .

سألته :

- ما اسمك؟

رد عليها :

- أبو عاصم .

تساءلت مع نفسها : كيف سيعصمني هذا القزم من المخاطر المُحدقة بي؟ وقبل أن يتحرك قال لها : اتبعيني .

تبعته واضعة مسافة بينهما ، الى سيارة أجرة تقف على بعد عدة أمتار ، يقف صاحبها قرب مقدمتها ، وهو رجل ذو بشرة بيضاء وشارب أشهب رفيع ، يرتدي دشداشة زرقاء باهتة ويعتمر كوفية مرقطة باللونين الأبيض والأحمر .

امرأة ستينية ذات وقار وهم ثقيل يسكن ملامح وجهها ، جسد نحيل وبشرة حنطية شاحبة مبقّعة ببعض الكلف ، تخفي شعر رأسها وراء شيلة سوداء وترتدي ثوباً أسود طويلاً

منقطاً بنقاط بيض ، تغطيه عباءة سوداء وبيدها سبحة بنية ، كانت تجلس في المقعد الخلفي وراء السائق قرب النافذة ، فجلست نرجس لصق النافذة الثانية وراء دليلها القصير ، سحبت الشريط الأبيض وأفلتت ذيل الحصان فانساب شعرها فاحم السواد على كتفيها ، وتراجعت الى الخلف لتسند ظهرها .

تحركت السيارة بعبارة من فم السائق مبحوح الصوت : باسم الواحد الأحد وعلى بركته ، مما أدخل بعض السكينة الى قلب نرجس ، سكينة تخترقها أحياناً بعض الشكوك مما هي مُقدمة عليه ،لم تهدأ تماماً إلا بعد أن خرجت السيارة من إحدى بوابات بغداد تحت قبة خيمة من الغبار ، مخلفة وراءها عشرات الجداريات للرجل الذي بيده كل شيء حتى أرواح البشر ، ومضت في الطريق السريع الذي لا يخلو من الجداريات أيضاً ، بمسافات متباعدة .

حاصرها التساؤل : أما كان الأجدر توفير الملايين التي صرفت على هذه الجداريات من شمال البلد الى جنوبه ومن شرقه الى غربه لتُصرف على الفقراء الذين يعيشون في العشوائيات؟ وداهمها إحساس بأن رجل الجداريات يلاحقها ويرجمها بالحجارة أنى اتجهت ،ليعيدها الى نقطة البداية .

طردت هذا الإحساس سريعاً لكي لا يتمكن منها ، ثم انتبهت الى خلو المقعد الخلفي من الراكب الثالث ، كيف يتحرك سائق مُفرّطاً بأجرة راكب ، ولعل المرأة الستينية داهمها

الشعور نفسه ، ارتابت نرجس والتفتت الى المرأة ، لكن الأخيرة كانت في هذه اللحظة تشيح بوجهها الى الطريق من الجانب الثاني .

كلما سارت السيارة في أرض خلاء شاسعة ، تقلصت السكينة في قلب نرجس ، باثة إليه الهواجس مما سيحدث قبل الوصول الى خانقين ، تحاول أن تزيح عن مخيلتها صور سيارة الأمن التي ستعيدها لا الى بيتها بل الى غرفة من تلك الغرف المظلمة في مديريات الأمن التي لا تعد ولا تحصى ، وتلوح لها عينا ضابط التحقيق اللتان عرّتها بنظراته الوقحة حينما استجوبها بعد اختفاء يوسف ، إلا أنها طردت وجهه والتفتت الى المرأة التي تجاورها ، فلعل الكلام بينهما يمنحها الأمان ، لكن المرأة لم تحرك رأسها ، ولم تفتر شفتاها عن أية كلمة أو أية همهمة سوى تحريك أصابعها على السبحة ذات الخرز البنية ، وربما تتلو صلواتها بصمت .

غمرت الشمس الأرض وموجوداتها بضوء ساطع يغشى العيون ، ستلتهب كرة الشمس بعد ساعات وتسوط الكائنات ، إنه منتصف شهر حزيران ، اختفت تدريجياً طبقة الغبار الشفافة ، وبعد أقل من ساعة داهمت نرجس مخاوف من نوع آخر ولم تتوقف ، فلقد بدأ الكلام بين الرجلين باللغة الكردية ، أو ربما التركمانية ، هي لا تعرف اللغتين ، لكنها تعلم أنهما مستخدمتان في الشمال ، لماذا تراهما يتحدثان بلغة أخرى

بينما كانا يتحدثان العربية؟ بل إن الرجل القصير ، دليلها ، لا يبدو عليه أنه كردي ، ملامحه تفضحه وتقول بأنه رجل جنوبي ريفي على الرغم من ملابسه المدينية ، ساورها القلق وهربت الطمأنينة ، وظلت من حين لآخر تتلفت نحو المرأة التي تجاورها ، لكن يبدو أن المرأة في عالم آخر ، متخشبة في مكانها ، غارقة في أمر ما ، وقد كفت عن إسقاط حبات مسبحتها ، كلما نظرت اليها نرجس بدا وجهها لغزاً لا يفصح عن شيء ، ربما هي الأخرى هاربة وتحمل من الهم ما جعلها غافلة عن الرجلين ، كل ما تفعله هو مسح وجهها من العرق بطرف شيلتها السوداء .

بدأت الأرض بالتموج ، وانفتح الأفق على فراغ ، الأرض تتمدد من الجهتين ، لا بيوت ولا مزارع ولا بشر ، أرض يباب ، إلا من أكمات الشوك ومخلفات لسيارات محترقة ، وأشجار متيبسة في مكانها ربما ماتت من العطش في صيف حرارته لا ترحم . .من حين لآخر تظهر عن بعد بيوت شعر ، أو بيوت طينية لا تلبث أن تخلّفها السيارة لتدخل أرضاً جرداء ، والرجلان ما يزالان في حديث مستمر بلغة أخرى ، ويعود الخوف الذي يجلل نرجس من دون أن تعرف وقعه على المرأة الصامتة .

أحست نرجس بسيلان العرق تحت إبطيها ومن أسفل أذنيها ، وأخيراً تحركت شفتا المرأة التي لم تتحدث طيلة ما مر

من وقت ، وقالت موجهة الكلام للسائق وهي تمسح عرق وجهها : أليس في السيارة تبريد؟ جاء جوابه جافاً ولاسعاً مثل طقس البلد الصيفي : التبريد عاطل . . لم يُضف كلاماً آخر ولم تعلق المرأة بشيء سوى أنها تأففت ، ولاذت ثانية بالصمت ، أما نرجس فقد تقاذفتها الوجوه ، وجه امها وهي تعنفها ، وجه يوسف الذي غاب من دون أثر ، وجه زوجها الذي بدا لها في هذه اللحظة محتقناً ومنفوخاً كأنه بالون من شدة الغضب ، وتوقفت مطولاً عند وجه ضابط الأمن الذي حقق معها وكاد ينزع عنها ثيابها بنظراته الوقحة :

- امرأة مثلك ، جميلة ومشتهاة ، ما الذي يربطها بخائن؟

لم ترد .

- ألم تجدي من يملأ عينك ويرضي رغباتك إلا هذا؟

واصلت صمتها :

- انسي قصة الحب الذي كان ، وابحثي لكِ عن رجل شريف .

تحركت شفتاها مرتجفة :

- ما الذي فعله يوسف ليصبح خائناً؟ حتى إنه لا يمتلك سلاحاً .

- ألم تسمعي بقول ، لسانك حصانك ، إن صنته صانك ، وإن هنته هانك؟ اللسان أخطر من المسدس . . لولا أنك ابنة شهيد وأمك مريضة لتصرفتُ معك تصرفاً آخر ، لكنني

سأكتفي بتحذيرك هذه المرة ، وحسابك عسير فيما بعد إن لم تتعاوني . . اقرئي هذه الورقة ووقعي عليها .

فعلتْ ما أمر به ، وظنت بأنه اكتفى بذلك ، انتظرتْ أن يأمرها بالمغادرة ، إلا أنه راح ينظر الى صدرها عند نقطة محددة بين النهدين متعمداً إحراجها ، حتى ظنت أن أحد أزرار قميصها قد انفتح ، فتحركت يدها على الأزرار ، وضحك من حركتها ، ثم قال :

- ارتباطك المباشر بي ، إذا وردتك أية معلومات عن يوسف فلا تخفيها ، عليكِ أن تفهمي بأن خطواتك مراقبة وأنه لا توجد أسرار لم تنكشف لدينا .

أشار إليها بالمغادرة ثم استدرك :

- ممنوع عليك مغادرة بغداد إلا بأمر مني ، هل تفهمين؟

ورنّ هاتفه ، وما إن رفعه حتى علا صراخه . . . لكن ارتجاج السيارة سحبها من ذلك الصراخ .

أوقف السائق السيارة ونزل منها : ماذا حدث؟ قذفت نرجس بسؤالها من دون أن توجهه لأحد ، ونظرت الى دليلها القصير لعله يلتفت ويطمئنها ، لكن رأسه الغائص في رقبة لا وجود لها لم يتحرك إلا الى اليمين ، حيث فتح الباب ونزل دون أن يلتفت الى المرأتين ولا حتى بنظرة عجلى الى نرجس . . التفتت نرجس إلى المرأة ولمحت رعباً في عينيها ، لكن المرأة لم تنبس بكلمة ، بل راحت تجيل النظر إلى جهتي الطريق حيث

لا أحـد ، ثم التـفـتت إلى نرجس في الوقت الذي جاء فـيـه صـوت السـائق لـيـقـول وهو يدس رأسـه من النافـذة القـريبـة من المقود :

- انزلا .

رجّها صـوته المبحوح كأنه يخرج من فم حيوان مـفـترس ، وهرب الدم من وجـهـها ، لابد أنه هرب أيضـاً من وجـه المرأة ، ولـم تتحركا إلا بعد النداء الثاني من السائق :

- انزلا ، حدث عطل بالسيارة .

حينما نزلتا ووقفتا متجاورتين على مبعدة من الرجلين ، سمعت نرجس عبارة : الله يستر . . لا تدري هل قالتها هي أم المرأة الستينية ، فقد كانت مفزوعة ، وكان الخوف قد تمكن منها وشلّ أوصالها ، المكان خالٍ وموحش ، والعيون المذعورة تركزت على الرجلين خشـيـة أن يقـوما بأية حـركة تغـيـر مـصـيـر الرحلة ومصـيرهمـا ، ماذا يعني السـائق حين أمـرهما بالنزول مفـتـعـلاً عطل السيارة؟

لا سـيـارات تمر ، ولا بناء يبين ، والأرض القـاحلة بدت منبسطة تلتصق بالسماء التي لا زرقة فيها ، أرض كأنها متاهة لا ملاذات سوى المجهول ، تبدو أحيـاناً مشـقـقة من العطش ، وفي أمـاكن أخـرى رمليـة تتـخللهـا بعض الصـخـور ، صـدى أصوات غـيـر مميـزة تلقي بهـا الرياح الحـارة الى الفـضـاء المريب ، لعلهـا أصوات أشـبـاح تتـجول لتـتـفـرّج على ما سـيـحدث إذ لا

أحد في المكان غير هؤلاء الأربعة ، لاحظت نرجس أن المرأة عادت لإسقاط حبات مسبحتها وقراءة آية الكرسي وعيناها لا تحيدان عن الرجلين ، التصقت بها ، والتفتت إليها المرأة بوجهٍ غشاه كرب لم تستطع إخفاءه ، وقالت :

- لا تخافي ، التزمي بما آمرك به إذا وسوس الشيطان لهما .

امتقع وجه نرجس ، اختلجت أجفانها ودمدم الفزع في صدرها ، أين الشجاعة التي تزنرت بها حين عزمت على الهروب ، وأين جموح الفرس في روحها؟ هذا أول امتحان يواجهها فتبدو إزاءه عاجزة ، كيف ستفتح الأبواب الألف بهذا الخوف وهذه العيون المذعورة؟ واصلت المرأة كلامها المتوتر بعد أن ألقت نظرة على الرجلين وهما منشغلان بتداول أمر العطل :

- لن ينالا منك وأنا على قيد الحياة ، سأدافع عنك حتى الموت . .

وشرعت تقرأ بصوت خفيض آية الكرسي للمرة الثانية .

طاشت أفكار نرجس واحتشدت مخاوفها وتلون وجهها بانفعالات شتى ، ماذا لو قُتلت المرأة على أيدي هذين الغريبين ، هل سيأتي الدور عليها؟ هل سيغتصبانها ومن ثم يقتلانها ويدفنان جثتيهما تحت قبة السماء الملتهبة بالشمس؟ هل جاءت لكي تموت على هذه الأرض المقفرة ، وهي ما تزال في بداية الرحلة ولم تبلغ بعد الهدف الذي هربت من أجله؟

أيمكن أن يكون محسن العلوان قد تواطأ مع الجهات الأمنية وأرسل لها هذا القزم فأوقعها بالفخ دون أن يدري مخلص فاروق أي شيء؟ أم أن مخلص فاروق لم يحسبها جيداً ولم يعرف نوايا محسن العلوان؟ كل شيء جائز في هذا الزمن الذي لا يؤتمن . . . لماذا تصطك أسنانها في هذا القيظ الحارق؟

في هذه الأثناء مضى الرجل القصير بعيداً إلى أرض تنخفض عن مستوى الشارع ، اختفى نصف جسده وراء شجيرة عاقول ، أحنى رأسه وانشغلت يداه ، من الواضح أنه يفك أزرار بنطاله ليتبول ، بدا بنصفه الأعلى حيث قميصه المخطط بالأسود والأبيض ، وشعره الأسود الكثيف ، مثل حمار وحشي ، والتصقت نرجس بالمرأة أكثر فأكثر كأنها تحتاج الى حماية أكبر ، العيون تراقب الرجلين وتترقب ، كما لو أن خطراً لن يطول وقته سيحيق بهما ، السائق يعاين أحشاء السيارة في مقدمتها ، يعود القصير من وراء شجيرة العاقول ، يبصق مرتين على الأرض ويمشي باتجاه السيارة ليشارك سائقها المعاينة ، مضت عشر دقائق تقريباً حتى رفع السائق رأسه وأشار بيده الى المرأتين ، طالباً منهما المساعدة في دفع السيارة ، تقدمتا حذرتين ، أما القصير فقد أمسك بالباب الأمامي من الجهة التي كان يجلس فيها ، بينما جلس السائق وراء المقود لتشغيل السيارة ، الهواء جاف والرياح حارة متحركة ، وثمة دوامات صغيرة تدور هنا وهناك فتثير الغبار وتسقطه على الوجوه ، ومن

حين لآخر ترمي نرجس نظرها الى القصير فلعله يحمل لها ما يطمئنها أو لعلها تكتشف من نظرة عينيه أية لعبة خبيثة يلعبها بالاتفاق مع محسن العلوان الذي رماها الى قدر سيء يقوده رجل شاء الله أن يكون قزماً .

وعلى الرغم من أن الرجلين لم يقوما بحركة مريبة تجاه المرأتين ، إلا أن الطمأنينة ماتزال بعيدة عنهما ، كل واحدة تفكر بأن عطل السيارة ، ومن ثم دفعها ، قد يكون حيلة من الرجلين لبث طمأنينة كاذبة ، ومع ذلك قامتا بالدفع متسلحتين بالحذر والمراقبة ، وكانت السيارة تتحرك ببطء شديد ، ثم شيئاً فشيئاً زادت حركتها ، وعاد الجميع الى المقاعد لتتواصل الرحلة .

قال السائق موجهاً الكلام للراكب القصير ، وهذه المرة بالعربية :

- في الطريق ورشة نتمنى أن لا تخذلنا السيارة حتى نصلها .

الخوف لم يتبدد بعد ، فربما تداولا الأمر ورتبا المصير في مكان آخر ، وبين بطء وبطء سارت السيارة حتى بان عن بعد بناء متهالك منشتل وحده في العراء المترامي الأطراف ، ذلك هو الورشة التي وقفت عندها السيارة . . بناء مستطيل من البلوك الرمادي المعتم ، مسقف بالجينكو ، عند باب الورشة وقف صبي ، وفي الداخل جلس رجل أربعيني يدخن ويشرب الشاي ، وثانية نزل الجميع .

تلفتت المرأة في المكان باحثة عن مراحيض ولما لم تر ما يشير الى ذلك اقتربت من الصبي الذي كان قريباً من السيارة لتسأله أين تقضي حاجتها ، أشار لها الصبي الى الخلف من البناية ، فهرعت المرأة وكانت في هذه اللحظة تمسك ببطنها ، ثم تبعتها نرجس .

حفرة في الأرض مسيجة بالبلوك ولا سقف لها ، يرتكن في أحد زواياها سطل فيه ماء وطاسة معدنية مزنجرة وإبريق من البلاستك أخضر يميل للسواد من كثرة الأوساخ المتراكمة عليه ، هذا هو المراحيض ، ولكن لا مناص ، دخلت المرأة أولاً وبقيت نرجس بانتظارها ، والأرض غارقة بالسكون ومغمورة بشمس ساطعة ، وثمة غربان تطير وتحط على صخور أو تنبش في الحفر ، والصمت الذي يحيط بنرجس يضج في صدرها .

خرجت المرأة من المراحيض لتدخل نرجس مسرعة ، ولم تتأخر ، فقد خرجت ممتعضة من قذارة المكان .

ماتزال المرأة صندوقاً مغلقاً على أسراره ، وربما نرجس بالنسبة لها ، لكنهما تبادلتا بضع جمل حول مشكلة السيارة وكم بقي من المسافة لكي تصلا خانقين ، حين سألت نرجس أجابتها المرأة : لقد قطعنا ثلثي الطريق .

ففهمت نرجس أن المرأة تعرف الطريق جيداً ، وأردفت :

- هل أنتِ من سكنة خانقين؟

نفت المرأة وقالت :

- لا . .أنا من بغداد وذاهبة الى بيت أختي في خانقين ، وأنتِ؟

سألتها المرأة فأوقعتها في الحيرة ، ماذا أرادت نرجس أن تقول لها حين تحركت شفتاها متزامنة مع صوت السائق وهو يقول : هانت ، سننطلق قريباً؟ لا شيء ، ربما تحركتا باحثتين عن أي كلام ، تقدمت المرأة وتبعتها نرجس ، انتظرتا على مسافة من باب الورشة ، تربعت المرأة جالسة على الأرض برغم حرارتها تقرأ أدعية السلامة ، ولم تكرر سؤالها على نرجس كأنها نسيته تماماً أو لم تطرحه أصلاً ، أما نرجس فقد بقيت واقفة ،لم تتبادلا سوى كلمات قليلة عن مشكلة السيارة ، دعت المرأة الله أن يلطف بهما ويُنهي المشكلة قبل حلول الظلام ، وما إن لفظت كلمة الظلام حتى فزعت نرجس ، وسألت :

- كيف سنقضي الوقت إن فاجأنا الظلام؟

مطت المرأة شفتيها وقالت :

- نوكل أمرنا لله فهو الذي يعلم بحالنا .

انكمش قلب نرجس ، كم تود أن تلقي بحمولتها الى هذه المرأة لتجد من يصغي إليها في هذه الرحلة المحفوفة بالخوف ، وتتخفف مما هي فيه ، أما بعد أن قالت المرأة ما قالت فقد تملّك نرجس اليأس ، يأس أخرسها عن الكلام .

مرّ وقت من صمت ، كبر وتمدد حتى جاء صوت الرجل

القصير وهو يصفر بقصبة حنجرته :

- انتهت المشكلة تفضلا .

وأشار إليهما أن تركبا . . قالت المرأة بصوت يخدشه الحزن وهي تسند يدها اليمنى على الأرض وتقوم : عليك توكلنا يا عالم بحالنا . . وبدأت الأرض بالتموج مرة أخرى ، وبالصعود ، ظهرت تلال مخدّدة ومجعدة وشجيرات وبيوت متباعدة ، وما يزال الهدف بعيداً .

كيف تأمنين يا نرجس لرجل لا تعرفينه لمجرد وعد لا سند له غير قصاصة ورق من مصدر مجهول؟

أنا نرجس ، وحيدة أمي ، أنا امرأة الخوف المدفون منذ آلاف السنين ، قطرنه نسوة غادرن الحياة قبل أن يدركن أحلامهن ، نشأت بذرة الخوف منذ الصغر داخل أعماقي ، نمت وترعرت من حيث لا أدري ، الأماكن المظلمة والمغلقة ترعبني ، أبكي كثيراً وأتشبث بأبي وأمي إذا ما وجدت نفسي في زاوية معتمة ، ويظل مصباح النور مفتوحاً في غرفتي حتى الصباح لئلا تهاجمني الأشباح المتوارية خلف الستائر والأبواب أو المختبئة داخل أغصان حديقة البيت ، أشباح ضخمة بعيون مضيئة وأنوف طويلة وذيول من نار ، أصرخ بحرقة كأن أفعى لدغتني إذا ما انقطع مصدر الضوء ، وتحاول أمي أن تخلصني من فوبيا الأماكن المظلمة بمواجهة الرعب الذي يتملكني لأتأكد بنفسي أن لا وجود للأشباح ، فتمسكني بقوة محاولة جري الى الممر المظلم في نهاية البيت وتقول بعصبية :

- كفي عن الصراخ ،لا توجد أشباح في الظلام .

فأقول لها باكية :

- رأيت الأشباح تأتي من الحديقة .

وحين لا أكف عن الصراخ يأتي أبي ، يحضنني ويأخذني الى الحديقة ، يقترب من الأشجار ويقول لي بأن العصافير

الوديعة نائمة بين الأغصان ، وإن الأشباح لا وجود لها إلا بعقلي الصغير ، وتخرج أمي ثانية ، تأخذني بعطف هذه المرة ، تطبطب على جسدي المرتعش وتكفكف دموعي فأنشج على صدرها حتى أغفو ، ثم تضعني في الفراش ، وتخرج مبقية باب غرفتي مفتوحاً .

عمري يتأرجح على أغصان الشباب ، هو عمر المرأة في أوج فتنتها ، وجه خمري مستدير ، وعينان بنيتان عميقتان ، وجسد متناسق ، وعناد تسلل لي من جينات أمي ، لكنه دائماً ينهار أمام صخرة عنادها ، ليس خوفاً منها ولكن محبة واحتراماً لها .

اليوم ما عادت الفتنة تعنيني ، فقد جفت بئر عواطفي مبكراً وغاب عني أحبائي ولم أخرج من عباءة الخوف ، سيلاحقني في كل خطوة لكنه لن يوقف عنادي في المضي حتى الوصول الى غايتي مهما كلفني الأمر ، كيف يستقيم الخوف مع العناد ، أليس في ذلك تناقض؟ يبدو الأمر كذلك ، أشعر أحياناً بأنني امرأة التناقضات ، لكن يصعب عليّ تفسيره ، ربما حين تهدأ نفسي وتستقر سأعرف هذه المرأة التي تسكنني ، وقد لا أعرفها ، ليس هذا هو المهم ، مادمت الآن على شفا رحلة مجهولة النهاية . . سأتزود بما يحمله رأسي من ذكريات لعلها تختصر المسافات وتبدد عني ، ولو الى حين ، الخوف المستوطن في أعماقي .

من أسماكِ نرجس يا نرجس؟ لطالما سُئلت هذا السؤال ،

وأجبت كأنني أفخر بشيء ثمين : أبي اختار اسمي ، وعندما يدللني فإنه يدعوني : نرجستي . . وأبي غاب عن دنياه منذ أول دفعة ساقوها الى الحرب ، تاركاً نرجسته لأم تخشى على ابنتها من نسمة الهواء فتقسو عليها كلما ازداد طولها . . قساوتها ، متأتية من حرمانها وهي في عز غواياتها من جسد الرجل الذي أحبته ، جسد أبي الذي شظته الحرب ولا يُعرف ما إذا عاد بجثة سليمة أم بأعضاء لملموها من عدة قتلى ، إذ لم يُسمح لها بفتح التابوت المبسمر .

كان عمري وقتها اثنتي عشرة سنة ، وداومت أمي على زيارة قبره حتى جاء يوم وكفت فيه عن الذهاب للمقبرة ، حين عادت مخطوفة اللون مرتجفة الجسد ، حدّثت صديقتها رباب بأنها ذهلت وهي تسمع لغطاً غير واضح يأتي من القبر جعلها تتلفت لعل اذنيها تخدعانها وتلتقطان أصواتاً تأتي من أناس في زوايا المقبرة ، لكن المقبرة فارغة من أيما بشر في ذلك اليوم ، وحينما بدأت الأصوات تعلو اختض بدنها فهربت مسرعة ومتعثرة بين قبر وقبر وهي تسمع الخطى تلاحقها ، ويخيل لها بأن أقداماً كثيرة تلاحقها .

أيمكن أن تعود تلك الأصوات لتلك الأطراف التي لملموها من عدة قتلى ودُفنت في القبر مع أطراف أبي؟ هذا أيضاً ما تعتقده أمي ، لقد كفت عن زيارة القبر ليس فقط من الخوف الذي اجتاحها ، بل لأنها توصّلت الى نتيجة مفادها أن هذا

القبر لا يخص أبي وحده بل يخص رجالاً آخرين ، وأحزانها تكفي فقط لرجل واحد .

كانت أمي مثيرة ، إثارتها تكمن في تناسق جسدها ونظرة عينيها الجميلتين ، سمرة مشربة بإغواء الفتنة ، كانت تعاني من نظرات الرجال الوقحة التي تخترق ثيابها حتى من إمام الجامع نزيه الأمين ، والبعض لا يتوانى عن الهمس حين يقترب منها وتفح منه رائحة الذكر ، وزاد الأمر بعد مقتل أبي ، فهي المرأة المشتهاة المحرومة من دفء الرجل . . كان ذلك قبل أن يتغير مصيرها بفعل لحظة دسها قدر أهوج فحرمتها شظايا انفجار من النظر بإحدى عينيها الجميلتين ، وخلفت ندوباً على صفحة خدها الأيسر ، تاركة عند زاوية الشفة من الجهة اليسرى انتفاخاً مدوراً يتحرك حينما تتكلم كأنه لقمة تقوم بمضغها .

آه من ذلك اليوم الذي تحولت فيه حياة أمي وانقلبت أيامها . . حتى موت أبي لم يفعل بها ما فعله ذلك اليوم ، كنت عائدة من المدرسة ، تتناهبني أحلام جامحة وأنا أحمل شهادة النجاح بتفوق ، نزلت من الباص وعبرت الشارع الرئيس ، كان عليّ أن أمشي عشر دقائق وبعدها أنعطف الى شارعنا ، لكنني ما إن اجتزت الشارع الرئيس وخطوت بضعة خطوات حتى حدث انفجار مهول قرب مركز الشرطة ، شاء حظ أمي العاثر أن تكون في لحظة حدوث الانفجار قريبة من المكان ، هرعتُ باتجاه

البيت ، لم أستطع الدخول ، صراخ وعويل ودماء ، وزعيق سيارات المطافي والإسعاف يصم الاذان ، فرضت القوات الأمنية طوقاً ومنعت الاقتراب من المكان ، سمعت صوتاً لم أميزه : نرجس الحقي أمك في سيارة الإسعاف ، صرختُ وتدافعت وتوسلت برجال الشرطة ورجال الإطفاء ووجدت نفسي محشورة مع الأجساد المدماة ، مع الأنين والبكاء والآهات والدماء ، بالكاد عرفت وجه أمي ، أمي التي فصلها ذلك اليوم عن أحلام النساء ، وعن تلك المرأة المثيرة التي تكاد إثارتها تخرج من ألبوم الصور .

منذ أن تشوه وجهها لم تعد تفتح الألبوم ولم تنظر في المرايا ، ومما زاد في عذاباتها أن بعض الناس يحيدون عن الطريق إذا رأوها ، ويتمتمون ويهمهمون لأنهم يتشائمون بفعل المعتقدات من الأعور ، حتى نزيه الأمين ، إمام الجامع الذي يلعلع في خطبة الجمعة ويحث الناس على السلوك القويم ، فإنه يبتعد حين يشاهدها بعد أن كان يشتهيها ، وإذا ما تفاجأ بها تمر قريبة منه يشيح بوجهه ويقرأ ، كأنه رأى الشيطان ، (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) متجاهلاً أن الله لم يخلقها إلا بأحسن تكوين وأن الذي جرى لها من فعل شياطين البشر وليس من فعل الخالق .

إلا صديقتها رباب ، فقد لازمت أمي طيلة الأيام التي قضتها في المستشفى ، وظلت وفيه لها ، لم تتغير لمجرد تغير

شكلها ، عاملتها كما لو أن أي تشوه لم يحدث لها ، وحينما تتحدثان لا تركز على تفاصيل وجهها أو تتابع حركة الكرة الصغيرة التي تتحرك وراء شفتها اليسرى ، أو العين المطفأة التي لم تعد ترى النور .

قوض حياتها ذلك الحادث فلم تجد إلاي لتتفصّل على مقاساتها حياتي . . إلى أين ذاهبة يا نرجس؟ لا تتأخري ، لا يغرّنك جمالك فيغويكِ غاوٍ ، انتبهي يا نرجس ، ثوبك قصير أكثر مما يجب ، ما هذه الحمرة على خدودك وشفتيك؟ الله لم يبخل عليك بالجمال ، خدودك مثل الثمر الناضج وشفاهك مثل الكرز؟ لا تتركي شعرك كما الغجريات ، لمّيه واعقصيه ، ستكونين أكثر احتراماً بعيون الناس .

حينما تنظر إليّ أمي أعرف حتى من قبل أن تتحرك شفتاها ماذا تريد أن تقول ، حفظت كلماتها فباتت مثل طنين يشرخ أذني ويوخز مسامعي ، وأحياناً أسبقها وأردد عباراتها وأنا أتضاحك ، فصارت تضيف كلمات أخرى في كل وصلة نصائح : أخاف عليكِ يا ابنتي ، ماذا يقول الناس عني؟ لم تعرف كيف تربي ابنتها؟ تربية البنات مرهقة بعدم وجود رجل ، أبوك كان شهماً وشريفاً ولا يدانيه في شرفه وشهامته إلا خالك بندر الذي لا أدري أين أخذته الدنيا .

لا أستسيغ تشبيه أبي بخالي الذي غابت تقاسيم وجهه عني لفترة طويلة قبل أن تكف أمي عن ذلك التشبيه حين عاد

بشكل آخر ، أبي أنيق ونظيف وذوّاق وهادىء الطبع ، أما خالي فكل ما أتذكره عنه أنه مشاغب وثرثار ومهرّج ولا يملك حساً بالأناقة ، هاجر منذ سنوات الى أمريكا حاملاً شعار حريتي أولاً مع أنه لم يكن ملاحقاً من جهة أمنية ، فهو لا يحمل فكراً معيناً . . انقطعت أخباره عنا فكبرت صورته في رأس أمي وصارت تضفي عليها كل يوم قداسة لا يستحقها ، حتى جاء اليوم الذي طرق فيه الباب ، وكنا أمام رجل ملتحٍ وبجبة وعمامة .

كنا نظنه متسولاً أو طالب تبرعات للجوامع أو ربما أخطأ في العنوان ، وحين صرخ بأمي فرحاً : أنا بندر يا أختي سلمى ، لقد عرف أمي على الرغم من التشوه الذي غير تقاسيم وجهها ، فغرت أمي فمها وصارت تتطلع إليه غير مصدقة ، وبعد أن تأكدت منه أخذته بالأحضان ، مكث في بيتنا ما يقارب الساعة ، شرب الشاي مرتين ، وتحدث عن النور الذي انبثق من أعماقه للوصول إلى اللّه في مكان آخر من الأرض ، ولم يفصح عن تفاصيل ذلك النور ، ثم غادر ، قال بأنه يريد زيارة صديق له في بابل وإذا سمح له الوقت سيعود لزيارتنا ، وقبل أن يصل الى عتبة الباب التفت نحوي وقال : يا ابنة أختي ، لا تحرمي نفسك من جنة الله ، غطي رأسك لتفوزي بها ، ولم يجد مني تعليقاً ، ويبدو أن الوقت لم يسمح له بزيارة ثانية ، لأننا لم نره بعد ذلك ، تحدث الى أمي في التلفون وقال

لها بأن الوقت أدركه وعليه أن يعود الى أمريكا . . . بينما ظل التساؤل على شفتي : كيف يعود من بلاد الحرية بجبة ولحية وعمامة؟

***

كانت أمي كل يوم تهزل ، وينهكها المرض اللعين بعد تشخيص حالتها بسرطان المعدة ، تتآكل برغم أنها مستمرة بانتظام على أخذ الجرعات الكيمياوية ، ولما ساءت حالتها عندما تعذر توفر الدواء في المستشفيات آمنت بنهايتها المحتومة ، ولم يعد يهمها سوى أمري ، تعيد على مسامعي اسطوانتها المشروخة بالزواج ، تلح وتبكي وهي تذكرني في خضم أوجاعها بقرب أجلها :

- أخاف أن أموت قبل أن تتزوجي ، لماذا لا تتزوجي يا نرجس وتريحيني؟

- أنا منذورة يا أمي لرجل قلبي الذي اختفى وأنتِ تعرفينه .

قلت ذلك مع نفسي ولم أجرؤ أن أبوح لها ، لأنني لو فعلت ذلك ستشهق من الرعب ، وربما ستصرخ ، وستضرب رأسها بالحائط ، ويتزايد دوران اللقمة تحت فكها الأيسر وستخرج كلماتها مبعثرة ، ثم تلتم بصرخة واحدة :

- كيف تبقين على حب رجل هارب ومطلوب ، ألا يكفي ما حدث لك في الدوائر الأمنية؟

وربما سأقول لها بأنهم غيبوه ولم يهرب ، ماذا فعل ليهرب؟
فترد :

- إذن فقد جرت تصفيته ، وفي هذه الحالة عليك أن تواصلي حياتك ، هل رأيتِ أحداً عاد من موته؟ أم تريدين أن تصبحي وليمة سهلة لضابط الأمن؟ لن أرتاح في قبري يا ابنتي ، سوف أتعذب ، هل يرضيكِ تعذيبي ، أما يكفي أنني تعذبت في حياتي؟

وستقول أكثر من ذلك وستبكي كثيراً وتخمش وجهها الذي خربته الشظايا ، لذلك سأصمت ، وأعيد ترتيب كلماتي قبل أن يفلت لساني بالتصريح بنوايا قلبي ، وأجيبها لكي أريحها :

- حين يأتي النصيب فلا رادّ له يا أمي .

تنبسط تقاسيم وجهها وتلين وتبتسم لتقول :

- قلت لكِ أكثر من مرة يا نرجس بأن نصيبك أمام عينيك فلا تضيّعيه .

وتقصد مؤنس الشاعر ، ابن صديقتها رباب ، تريد أن تكافأها على العناية التي أبدتها لها في أمراضها فتزوجني مؤنس المنفوخ الأوداج .

صمتنا نحن الاثنتين ، هي تنتظر إجابتي ، وأنا أرثي لحالي ، ثم لما طال بيننا الصمت قالت بعيون متوسلة :

- كيف ستكون حياتك من بعدي يا ابنتي؟ أظنني لن

أستريح في قبري أبداً إن تركتك وحيدة؟

تزوجت من مؤنس الشاعر ، الذي انشغل فيما بعد بجسدي وتجاهل عقلي ومشاعري ، مشترطة عليه أن لا أسكن في شقة عالية كتلك التي تسكنها أمه في الطابق التاسع من مجمع الصالحية ، فاستأجر لي شقة أرضية في عمارة مجاورة ليكون على مقربة من أمه ، تزوجته لتحقيق رغبة أمي التي أنتظر موتها وأتخيل وحدتي القاتلة من بعدها ، قبلته زوجاً إرضاءً لها ، لأحقق رغبتها الأخيرة في الحياة ، تقاسمتُ الوقت بينها وبين زوجي ، لكنني لم أجد فيه الرجل الذي يملأ عيني ويحتويني ، لم أحس بدفء يديه ، لم يقشعر بدني من لمساته ، لم أشعر بكهرباء الحب تسري في جسدي كما كان يحدث مع يوسف لمجرد لمس أصابعي ، كان مؤنس يفعل المستحيل من أجل أن يوقظ أحاسيسي لكنها لم تتيقظ ولم تتناغم معه ، جسدانا متنافران ، لم أجدني في الفراش معه غير جثة تنتظر أن توارى في التراب ، ويداهمني إحساس بأنني فقدت طهارتي كلما لامسني ، وكنت أشعر دائماً أنني منذورة لرجل آخر سأنتظره حتى آخر العمر ، وأفاجأ أحياناً عندما أصحو من النوم في وقت متأخر وأجد رجلاً يشاركني الفراش ، ثم أتذكر في اللحظة التالية بأنني تزوجت ، ومن الغرابة أن يطالبني مؤنس بأن أحبه مثلما يحبني كما لو أن الحب سلعة يمكن شراؤها من دكاكين العطارين ، أو مادة مخزونة في مذاخر الصيادلة ، أدهن

بها جسدي فيشتعل بالحب الحارق والرغبة اللاذعة . . . كنت معه دائماً أبرد من برد شباط . . . نحن لا نشتعل إلا مع من نحب .

ماذا أفعل وأنا لم أر فيه رجلاً على مستوى أحلامي مثل يوسف؟ ولم أجد فيه سوى رجل لم تمنحه الحياة فرصة أن يتطابق مع اسمه ، رجل يتوهم أهميته كلما كتب قصيدة ، ويحلم بالظهور يوماً ما على شاشة التلفزيون ، ويزج بنفسه في كل مناسبة اجتماعية ليقرأ شعراً مضحكاً ، يشعر بالنشوة وهو يرى المستمعين إليه يضحكون ، وكنتُ أبتسم بمرارة كلما ضحكوا واستهوتهم قصائده الهزلية الهزيلة ، أقول في نفسي ما هذه التفاهة التي يقولها؟ فأشعر بالأسى عليه وعليّ ، وكثيراً ما يلح لمعرفة رأيي عندما يقرأ علي قصائده ونحن منفردين ، فأغصب شفتي على الابتسام وأقول له : أنا لا أفهم بالشعر أيها الشاعر ، فيغضب ويسمني بالجهل ، ويوماً بعد يوم تتسع الهوة بيننا وتتعمّق حتى لم أعد أطيق أنفاسه في الفراش ، أنفاسه التي تضايقني بروائح العرق والثوم ، لقد مات كل شيء في داخلي ، ولم تنفع كل مغازلاته في تحريك بركتي الساكنة ، لماذا ماتت أمي بعد أسابيع قليلة من زواجي؟ هل كانت تؤجل موتها لتتأكد من أنني أصبحت بعصمة رجل فتطمئن روحها؟ رحلت أمي راضية عني ، وحرمتني نعمة الرضا عن نفسي ، رحلت بوجهها المشوه وتشوّهت حياتي من بعدها .

حين عاد ذات ليلة مخموراً من سهرة مع أصحابه ، ولأنني أعرف أن لا حدود لنزواته ، فقد افتعلت النوم ، وكثيراً ما أفعل ذلك ، في بعض الأحيان يتسلل الى الفراش محاولاً عدم إيقاظي ، وأعرف من رائحة جسده التي تشبه رائحة بطيخ متفسخ بأنه أفرغ طاقة جسده خارج البيت ، لكنه في تلك الليلة حاول إيقاظي بإلحاح ، كان هائجاً مثل ثور ، أنفاسه تتلاحق وأصابعه تبحث في جسدي عن أماكن محددة ، فلم أجد غير أن أبعد يده وأسحب جسدي من السرير : إياك ، صرخت به كأن عقرباً لدغتني ، فانتفخت أوداجه واحتقن وجهه ، وظل يحاول معي متجاهلاً نبرة صوتي الغاضبة ، باحثاً عن أنفاس في الجثة التي تشاركه السرير ، ولما عجز عن نيل ما يريد راح يتوسلني ورائحة العرق تفوح من فمه ، لم أره ضعيفاً ومهاناً على هذا النحو من قبل ، ومع ذلك لم أشفق على ضعفه ، بل احتقرت مهانته وصرخت به ثانية : لا تلمسني ، لململت قميص نومي حول جسدي وهممت بالنزول من السرير ، وبنبرة التوسل رشّ على وجهي رذاذ الكلام : مابك ، هل فقدتِ المشاعر الى هذه الدرجة؟ كدت أضحك سخرية وأقول له : وماذا تعرف عن المشاعر أيها الشاعر؟ هل المشاعر عندك مرتبطة بما بين ساقيك؟ لكنني لم أقل ذلك ، نزلتُ من السرير كاتمة صرخات روحي ، وتركته فلم يلحق بي لكنني سمعت شتائمه وكلمات بذيئة تساقطت من فمه الرخو

المخمور ، واكتفيت بالقول : آسفة ، ما عاد أمري بيدي ، دخلت الغرفة التي سألجأ إليها كلما زهقت روحي .

نعم ، ما عاد أمري بيدي لأصنع حباً على مقاسات جسد زوجي الذي لا أحبه ، بركان جسدي ثار وتمرد ، ومنذ تلك الليلة بدأت القطيعة الفعلية ، فلتكن هذه المرة حاسمة ، لقد مرّ وقت عمل فيه كل واحد منا ما بوسعه ، هو من أجل إرضائي لأنه مايزال يعتقد بأن السبب وراء برودي ونفوري منه هو حزني على موت أمي ، ولذلك ظل يراهن على الوقت ، وأنا من أجل استعادة حريتي ، ومنذ تلك الليلة فكرت جدياً بالهروب ، كان الهروب مجرد فكرة انغرست مثل بذرة في رأسي ، وكبرت مع الأيام ، لكنني وقتها لم أكن أعرف كيف وإلى أين أهرب ، حتى جاء وقتها المناسب وأوان قطافها ، حين وصلني خبر رجّ أعضاء جسدي رجاً ودوّخني ، كاد يغمى عليّ ، كأن صاعقة نزلت من السماء فضربتني ، أكاد لا أصدق ، ما أسمع ، أقول لمخلص فاروق وأنا في مكتبته :

- هل تمزح معي يا مخلص؟

فينظر الى باب المكتبة وحين يتأكد من أن أحداً ليس بالباب يقول :

- هل يمكن أن أمزح في هذا الأمر؟

قلبي يكاد يطفر من بين أضلاعي ، أمسك برأسي لكي لا ينفجر من ثقل ما هبط عليه :

- أعد عليّ ماقلت .

فيرد :

- أنا نفسي لم أصدّق ، ومازلت في حالة شك ، لكن الرسالة تؤكد أن يوسف حي يرزق .

أصابعي ترتعش والكلمات تتراكض على شفتي :

- أرني الرسالة ، فلربما هناك من يتلاعب بمشاعرنا .

عاين مدخل الباب ثانية وأخرج ورقة صغيرة من جيبه ، التقطتها منه قبل أن يمدها لي وقرأت (يوسف لم يأكله الذئب ، إنه حي يرزق)

فقط هذه العبارة الرجراجة التي لا تفتح سوى كوة صغيرة لا أعرف على ماذا ستنكشف :

- ما هذا الكلام يا مخلص؟ من أعطاك هذه الورقة؟

- لا أعلم من الذي حشرها في باب المكتبة .

- هل أخبرت أحداً من عائلته؟

- وأين أجد عائلته؟ ألم تعلمي برحيلهم عن المنطقة؟

- أبداً ، إنك تفاجئني ، أنا انقطعت عن زيارتهم منذ وقت طويل بسبب موقف امه مني بعد زواجي . . . إلى أين رحلوا؟

- لا أعلم ، لقد شبعوا ذلاً وما عاد بإمكانهم العيش هنا خصوصاً بعد وفاة أبيه .

- حاول أن تعرف مكانهم واخبرهم بالأمر .

- حتى لو علمت مكانهم فلا أريد أن أغرس أملاً كاذباً في قلوبهم؟

- أمل كاذب خير من يأس يعرّش في أرواحهم ، ثم أنك قلت قبل قليل بأنه حي يرزق .

- قلت ذلك بفعل تأثير العبارة في الورقة ، أنا أيضاً أريد أن أغرس الأمل في نفسي ، ولكن عليّ الانتظار لكي لا أتسرع في قضية خاسرة .

أيام وأيام ، ننتظر إضاءة أخرى لعلها تجيء لتوسع الكوة الضيقة ، شرّقنا ، أنا ومخلص ، في التأويل ، وغرّبنا ، بدأ الأمل يضمحل حين توصلنا الى أنه يمكن أن يكون مزحة ثقيلة من أحدهم لغاية في نفسه ، ترى من يمزح هذه المزحة السمجة ويلعب هذه اللعبة الخطرة؟ لكن ، نعود من جديد ونشحن قلبينا بالأمل ، ونبحث عن وسيلة توصلنا الى قلب الحقيقة . . . . وننتظر ، لعل سراجاً ينبثق ضوؤه من العتمة التي نحن فيها .

والأيام نداولها بيننا ، أنا ومخلص ، بسرية تامة ، لا نتحدث عن الأمر تلفونياً ، نعلم أن التلفونات مراقبة ، بل أمضي الى مكتبته الصغيرة بحجة شراء الصحف أو أية مجلة أو كتاب ، وحينما يكون ثمة زبون في المكتبة أتشاغل بتَقليب الكتب ، وحين يخرج الزبون أقترب من مخلص فيرفع حاجبيه ويفرد يديه كأنه يقرأ السؤال في عيني قبل أن يصل الى شفتي :

- لا جديد ، لكنني لم أفقد الأمل

- ولا أنا ، لكن حاذر أن لا يكون الأمر مدبراً لك فهم يشكون بكل من له صلة بيوسف :

- هم لم يخفوا شكوكهم من الاستجواب الأول .

- برأيك لماذا بعد ما يقارب السنة تجيء تلك المعلومة المشكوك بها حتى الآن لتغير المجرى الراكد لنهر الغياب؟

- لا أملك أية إجابة ، ربما كانت المعلومة صحيحة ومن جاء بها لم تسعفه الظروف قبل هذا الوقت ، وعلى العموم ستكشف الأيام ما كان مخفياً .

في القلب مجامر لا تخبو ، صداع يسكن رأسي ، نومي مضطرب ، ومشاكلي استعرت مع زوجي ، أثور لأتفه الأسباب ، وأستفزه لأفرغ شحنات غضبي فأقول له حينما يقرأ قصائده ما لم أجرؤ أن أقوله له من قبل : من ورطك وقال لك بأنك شاعر؟ غير عابئة بما ستكون عليه ردة فعله ، لقد حرمته من كل الأحاسيس الجميلة التي يتمناها أي زوج في زوجته لأنني لم أمتلكها معه ، وأنفجر بالبكاء كلما لاح لي وجه يوسف وأخاله عاد وعرف بزواجي من مؤنس ، وصرخ بي متمنياً لو طالت غيبته حتى آخر يوم في حياته ، وربما سيختفي ثانية متجرعاً مرارة الهزيمة ، طاوياً أحزانه في قعر روحه ، لكنه على أية حالة يكون عليها فإنه سيشطب على امرأة كان يحبها تدعى نرجس؟

أما زوجي مؤنس فقد شطبته تماماً من حياتي ، ورحت أتلاعب بأعصابه وأستدرجه أكثر فأكثر الى منطقة المشاحنات والتقاطعات الحادة ليقرر ما كنتُ قد قررته ولم أقله على لساني ، فإذا لم ينفع الأمر سأهرب وأترك له رسالة أطلب فيها أن يطلقني غياباً ، وإذا نجحت في جري له ورمى بوجهي يمين الطلاق سأكتب له : لقد طلقتني أمام الله فاجهر بالطلاق أمام الناس . . وفي الحالتين فهو لا يريد أن يصبح أضحوكة بين الناس الذين سيتساءلون : لماذا هربت نرجس ، لابد أن لها عشيقاً هربت معه؟ وستقصر رقبته بينهم ، ولم تعد له نظرة احترام ، سيزدرونه وربما يسمعونه كلاماً جارحاً يحط من رجولته ، لذلك كله سيكون عليه أن يعلن بأنه طلقني ، ولا يهمه بعد ذلك أن يعرف بالتحديد الى أين هربت ، ولأي سبب ، كما لم يخطر بباله بأنني هربت من أجل حبيبي يوسف ، هذا مستبعد بالنسبة إليه ، فحياة يوسف انتهت منذ أول يوم اختفى فيه ، والحياة بالنسبة لمؤنس لمن يعيشها لا لمن يفقدها ، ومؤنس رجل يحب الحياة ويعاملها مثل نكتة ، صحيح أن مساحة الضحك تقلصت منذ استجوابي للمرة الثانية ، وكانت الأولى قبل زواجي منه ، وعاش يوماً أسود تخلله أرق ونكد ، فقد كان يحلم أن يكون واحداً من شعراء قصيدة ال (مليون) الذين يتسابقون لنيل هذا المبلغ من الرئيس عندما تعجبه قصيدة في مدحه .

***

مرّ أسبوعان ، فإذا بمخلص يضع الورقة الثانية بين يدي (قابل محسن العلوان بعد الرابعة عصراً في مكتبه ، هو الذي سيساعدك في مهمة الوصول الى صديقك)

- من محسن العلوان هذا؟

سألت مخلص فأخبرني :

- كل ما أعرفه أنه صاحب مكتب استنساخ في شارع الرشيد ، زرته مرتين على ما أذكر ، كان ذلك منذ عدة أشهر لاستنساخ كتابين ، إنه يجازف بحياته كما ترين .

نظرت إليه بعدم ارتياح مِن محسن العلوان هذا ولم أخفِ شكوكي :

- من يقول بأنه لا يعمل مع أجهزة الأمن؟

بدد مخلص مخاوفي بالقول :

- لا ، لا يذهب تفكيرك بعيداً ، مكتب محسن العلوان هذا مجرد واجهة لأعمال أخرى ، منها استنساخ الكتب الممنوعة ، وهو رجل يسترزق بطريقته الخاصة وإن كانت خطرة .

أول الخيط كانت الورقة ، قادتنا الى محسن العلوان ، الذي أخبرنا بأن يوسف في أحد سجون خانقين ، وحينما سأله مخلص عن مصدر معلوماته اعتذر : كونا متأكدين مما أقول ، هذا شغلي ولم يسبق أن خذلت أحداً . . .وسيرتب أمر مخلص أو أحد أفراد عائلته للسفر الى هناك ليتعرفوا على الحقيقة إن شاءوا ، وضّح له مخلص بأن عائلة يوسف رحلت ولا نعرف

الى أين ، وأبديتُ استعدادي للسفر ولم يعترض مخلص ، فهو يعلم أنه غير قادر على القيام بهذه المهمة ، ليس فقط لأنه يشعر بأنه مراقب ومستهدف ، بل لأنه المعيل الوحيد لعائلته ، لا يريد لأمه وأبيه وزوجته وأطفاله أن يضيعوا من بعده ، ولأنه أيضاً يعلم بأنني تحررت من كوني متزوجة ، ولم يبق لي من ذخيرة سوى يوسف .

نفضت غبار الخوف عن قلبي ، حاملة ذبالة أمل ضئيلة ، عاقدة عليها العزم ، حتى لو كان الأمل مجرد ورقة محشورة في ضلفة باب مكتبة . . وانطلقت في رحلتي التي ستأخذني الى مبتغاي ، أو ستقذفني الى المجهول . . . . وآه من المجهول في بلدي .

وجهه هادىء الملامح ، قد تتغير ملامحه في حالة غضب نادرة ، صوته خفيض عميق ذو قرار ، عيناه خضراوان مضيئتان ، كأن الله أودع غاباته الغناء فيهما ، قامته مديدة ، وسيم ، نابض ومفعم بحب الحياة ، ذلك هو يوسف ، الشاب الذي اختفى في ظروف غامضة ، ولا عجب أن يختفي المرء في هذا الزمن ، زمن النفي والتغييب ، زمن الحزن الأبدي والحب المفقود والأماني المخنوقة ، زمن الأمهات الملتاعات على أبنائهن ، والعاشقات المحترقات بجمر الحب ، والعانسات اللواتي ماتت أحلامهن لأن الرجال قتلوا في حروب سابقة وآخرون أغلقوا أبواب قلوبهم لأن الحروب اللاحقة تنتظرهم ، زمن الخوذات التي لا تنزل عن الرؤوس إلا عندما يموت أصحابها ، الزمن الذي صار المرء فيه يخاف من خياله ومن ظلال الأشجار في بيته لئلا تخفي بين غصونها ما يكشف أفعال الناس في بيوتهم غير الآمنة ، الخوف من الجار والقريب وزلات اللسان وآلة التلفون وربما آلات متناهية الصغر تُدس في الزوايا وتدخل أسرّة النوم لتلتقط كل كلمة وكل نأمة .

ولكي تكف عائلته عن المراجعات والكلام الذي لا يعجب سلطة البلد فقد استدعي أبوه ذات يوم الى الفرقة الحزبية ، قال

له كبيرهم ما جعل أنفاس الأب تكاد تتوقف : كف عن الكذب ، أنت تعرف أين هرب ابنك ، تأكدنا بأنه يحمل أفكاراً هدامة ، وقد هرب الى جهة معارضة لينضم الى خانة العملاء ، نحن حتى الآن نرأف بحالك لأنك رجل كبير السن ومريض ، ولو أردنا أن نضعك في رؤوسنا لما بقي رأسك على كتفيك ، وقل لزوجتك أن تبلع لسانها لأنها تشيع البلبلة لتغطي على هروب ابنها ، وإذا لم تبلع لسانها ستجد نفسها ذات يوم بلا لسان .

هذا هو السبب المباشر لموت الأب بعد أيام قليلة من ذلك الاستدعاء .

قال مخلص فاروق لنرجس وهو يخبرها بذلك :

- إنهم يزرعون الرعب في قلب الأب ليكف عن السؤال عن ابنه ، وإنهم يعلمون أن يوسف لم يهرب ، بل يعلمون علم اليقين بأنهم أخفوه ، لكن هذه هي طريقتهم لأخفاء الجرائم .

سألته نرجس :

- ماذا فعل يوسف ليخفوه؟ هل انتمى لحزب محظور دون أن أعلم؟

يقسم لها مخلص أن لا علاقة ليوسف بأية جهة معارضة لكنه يتجرأ أحياناً في المقهى ويبدي رأيه بسياسة البلد التي جرّت علينا الويلات ، وربما قام أحدهم بتسجيل ما قال أو كان المكان مزروعاً بآلة تلتقط الكلام .

- ماذا كان يقول؟

- كل ما كان يقوله لا يقود الى الإخفاء بهذه الطريقة ، فهو يتحدث عن معاناة الناس من مثل فقدان المواد الغذائية من الأسواق واحتكار المتنفذين للسلع ، عسكرة الحياة ، انعدام مساحة حرية الرأي الآخر بوجه عام ،لكنني أظن أن المرة الأخيرة التي لم أحضرها ربما تكون هي السبب ، نقلها لي أحد الحاضرين في ذلك اليوم بعد أيام على اختفائه ، قال بأن الحديث جرى أول الأمر أدبياً ، فقد حمل أحد الأشخاص رواية (السيد الرئيس) وأثار العنوان ريبة أحدهم ، فقد ظن أن المقصود هو رئيسنا ، ونظر بعدم ارتياح للرواية ، لكن الشخص بدد ظنونه بالتوضيح : إنها رواية للكاتب الغواتيمالي ميغيل أنخل استورياس ، تتحدث عن الحكم الاستبدادي للدكتاتور كابريرا الذي حكم غواتيمالا بالنار والحديد ، وتلذّذ بقتل شعبه .

من هنا بدأت المناقشات ، ولكي لا تأخذ اتجاهاً محظوراً فقد روى لهم هذا الشخص نكتة ، جرت في أحد غرف وزارة الثقافة ، حينما مرت الرواية على الرقيب ، وقبل أن يعرف هذا الرقيب محتوى الرواية انخطف وجهه وصاح أمام الموظفة الحسناء : ما هذا الغبي الذي يكتب (السيد الرئيس) ولا يلحقه بعبارة (حفظه الله ورعاه) ودفع بالرواية الى الموظفة بعد أن كتب على ورقة ألصقها بالغلاف (يعاد طبع الغلاف بإضافة

عبارة (حفظه الله ورعاه) وضحك الجميع .

لكن يوسف لم يضحك ، وقال كلاماً آخر : سبق لي أن قرأت هذه الرواية ، وهي تنطبق فعلاً على واقعنا المزري ، كأن استورياس عاش في العراق ، أو أنه واحد منا ، يرى ويلمس الاستبداد الذي نعيش تحت وطأته . . لم يعلق أحد ، بل تحسسوا رقابهم ، ثم انسلوا واحداً بعد الآخر خارج المقهى ، فقال يوسف بنبرة ممزوجة بالسخرية وأمام آخر واحد منهم يتهيأ للخروج : جبناء ، أمثالكم السبب في ما نحن فيه .

لابد أن يكون أحدهم قد وشى به .

***

حين اختفى يوسف اختفت الابتسامة التي تميز وجه صديقه مخلص فاروق ، خصوصاً بعد أن اعتقلوه مدة أسبوعين واستجوبوه بطريقة مهينة على الرغم من علمهم بأنه لم يكن مع الشلة التي اجتمعت في المقهى في ذلك اليوم . . ولما ضاع أثر يوسف تماماً وبدأ اليأس يتربع في قلب نرجس لم تقطع صلتها بمخلص ، فهو الوحيد الذي تأتمنه على أسرارها ، وهو الوحيد الذي يمكن أن تصله أية معلومة عن يوسف قبل أن تصل الى بقية أصدقائه ، ولذلك ظلت على تواصل معه ، تلتقيه في مكتبته الصغيرة الكائنة في شارع المتنبي ، لعلها برغم اليأس الذي يسكن قلبها تسمع خبراً يوقف نزيف ألمها ،

وكانت في ذلك الوقت تقنن زياراتها لعائلته بسبب شعورها بأنها مراقبة بعد استدعائها هي أيضاً لمقر الفرقة الحزبية وخضوعها لاستجواب خرجت منه مرعوبة ، وأحالها الى كتلة من قلق ، ثم جاء زواجها ، ليبعدها عنهم تماماً ، لم تعد الأم ترتاح لرؤيتها ، قالت لها ذلك بكل وضوح ، وبقسوة أيضاً : ما الذي يربطك بنا؟ اذهبي لزوجك واتركينا . . وحينما همّت نرجس بالكلام مبررة زواجها أسكتتها الأم بنظرة حادة خالية من أي تعاطف : اش ش ش ، لا أريد سماع الترهات ولا أريدك في بيتي بعد الآن .

***

كلما جلست نرجس وحيدة أخذتها الذكريات الى زمن البراءة الأولى ، عندما كانا طفلين يلعبان معاً ، كم كانت أمها تعنفها :

- البنات يلعبن مع البنات ، لو علم أبوكِ لحـرمك من المدرسة .

- يوسف لطيف معي يا ماما .

- لكنه ولد يا بنتي .

- أعرف يا ماما ، هل قلتُ لك بأنه بنت؟

- لا تردي عليّ هكذا وإلا سأحبسك ، اهتمي بدروسك ، هل كتبتِ واجبك المدرسي؟

- كتبته ماما ، فتشي دفاتري لتتأكدي .

وبينما الأم تفتش دفاترها يطل يوسف من وراء ظهر الأم ، يضع يده على فمه لكي لا يصدر أي صوت ، يعطيها إشارة من يده فتعرف بأنه سينتظرها على شاطىء النهر ، ستشاركه صيد السمك ، تناوله الطعم ليلقم الصنارة ويرميها في النهر ، وتجلس هي الى جواره بانتظار سمكة تعلق بإبرة الصنارة ، أو يتعاونان معاً لبناء بيوت من رمال ذهبية لا يلبث الموج أن يجرفها فيعيدان بناءها في كل مرة ، وأحياناً يصنع لها من الطين طائراً بأكثر من جناح ، يقول لها وهو يضحك : إذا حبستك أمك امتطي هذا الطائر وتعالي الى النهر لكي نلعب .

ستظل نظرات أمها تطاردها لسنوات حتى بعد موتها ، تؤنبها ، وتتابع تحركاتها ، وتسألها كلما همّت بالخروج من البيت : الى أين ذاهبة يا نرجس؟

***

الوقت بعد منتصف النهار بقليل ، وقفت السيارة في مرآب غير مسيّج ، التعب بان على الوجوه ، نظرت نرجس حواليها ، هذه خانقين إذن ، ثم أرادت أن تتأكد فالتفتت الى المرأة ، نعم هي خانقين ، قالت المرأة من دون أن تلتفت الى نرجس التي تعلقت عيناها في هذه اللحظة بالقصير وهو يلتفت التفاتة سريعة اليهما ، ثم يسير بين السيارات ، ومن ورائه تسير المرأتان ، لم يتبادر الى نرجس أن المرأة ستسير مثلها خلف الرجل ، كانت تظن أنهما ستنفصلان بمجرد الخروج من المرآب ، فالغايات مختلفة كما كانت تعتقد .

خرجوا جميعاً من المرآب فتلقفهم ضجيج السوق ، عربات صغيرة تحمل الخضار وأصوات باعة تتواصل لجذب المتبضعين وحمالون لا تغفل أعينهم عن الزبائن ولغط بلغة لا تفهمها النساء القادمات من العاصمة ، السوق طويل ممتد بموازاة أرض مرتفعة ، ومتداخل مع البيوت والأبنية القديمة والدكاكين التي تبيع كل شيء ، من البسط المصنوعة باليد الى حقائب اليد القماشية والجلدية وحقائب السفر والأحزمة والجوارب والكيوات وأدوات المطبخ البلاستيكية والفافون والتحف الرخيصة والنارجيلات والتبغ وأنواع الصابون البلدي والكرزات

والعسل الطبيعي والأجبان والتمور وقلائد التين المجفف والحلويات والألبسة الجاهزة المهربة من إيران .

لكن ما أدهش نرجس أن المرأة غذت السير بجانبها ومرت بكل المنعطفات التي سار فيها القصير والى جانبه السائق ، حتى وهو يدلف في زقاق ضيق ، تقع على جانبيه بيوت حجرية قديمة ، وتبرز في الجهة اليمنى عند انتصافه مقهى صغير يتجمع فيه رجال كبار السن يرتدون السراويل الملونة ويدخنون ويشربون الشاي أو يلعبون الدومينو ، اتجه السائق نحو المقهى وقال للقصير : سأنتظرك هنا .

لم تتفوه أية واحدة منهما بكلمة ، انعطف الزقاق الى اليسار وبدا أقصر مسافة من الجزء الذي خلفوه وراءهم ، وبان للجميع بأنه زقاق غير نافذ ، انتهى بباب خشبي عتيق مزخرف برسوم ورود وأوراق بارزة ، يتوسطه مقبض من البرونز الأصفر الصدىء ، وقف القصير عند عتبته وأمسك بالمقبض ليطرق على الباب ثلاث طرقات منغّمات ، ثم تلتها ثلاث ، وبعدها دار مفتاح وتحرك مزلاج وانفتح الباب ، فتحه رجل في منتصف الخمسينيات ، طويل القامة أبيض البشرة ، بعينين زرقاوين وشارب ثخين ، يرتدي شروالاً رمادياً داكناً ، وحزاماً قماشياً عريضاً ، ما إن رأى القصير حتى صاح :

- أبو عاصم؟ يا أهلاً وسهلاً .

وأشار للجميع بالدخول .

أتدخلين يا نرجس الى الجنة أم الى النار؟ هل خرجتِ من مشكلة السيارة لتدخلي في مصيبة لا تعرفين الى أين تؤدي؟ ليس ثمة وقت ، حين التفتت الى المرأة كانت هذه قد تحركت من دون أن يخالجها أي شعور بالقلق ، فوجدت نرجس نفسها تدخل كأن يداً خفية تدفعها عنوة .

وبعدما عبرتا العتبة الى الداخل صارتا بمواجهة امرأة في نهاية الأربعينيات من عمرها خرجت من أحد الأبواب ، بوجه ناصح البياض مشرّب بحمرة خفيفة ، عيناها واسعتان ورموشها كثيفة كأنها مظلة فوق العينين الشهلاوين ، شعرها مفروق من الأمام ومضفور بجديلتين طويلتين تصلان أسفل الظهر ، هي للسمنة أقرب لكن جسدها متناسق ، ترتدي ثوباً طويلا فضفاضاً بألوان زاهية يطغى عليها اللون الأخضر الفيروزي ، على سروال عريض من القماش ذاته ، وصدرية بلا أكمام مطرزة الحواف ، تكلم القصير معها بالكردية ثم التفت منقلاً عينيه بين نرجس والمرأة ، ليعرّف بأصحاب البيت :

- كاكا محمود صاحب البيت ، والسيدة مزكين زوجة كاكا محمود ، من أعز أصدقائي ، ويحسنا إكرام الضيوف .

رحبت مزكين بالمرأتين قائلة :

- البيت عامر بالنساء .

وهو مثل كردي يعلي من قيمة النساء في البيت .

والتفت كاكا محمود الى القصير قائلاً :

- يا رجل ، ما لك تقصر كلما رأيتك ، سيأتي يوم وأراك فيه فأظنك طفلاً ضائعاً يبحث عن أمه .

ضحك أبو عاصم وقال :

- وأنت تزداد طولاً كأنك عمود كهرباء .

- لكنني لست عاطلاً مثل أعمدة كهرباء الحكومة .

قهقها عالياً ، وأشارت مزكين إلى المرأتين بالدخول إلى المضافة ،لكن قبل أن تتحركا قال القصير ملتفتاً الى المرأتين :

- بعون الله ستصلان الى نتيجة أما أنا فسأغادر .

اعترض كاكا محمود :

- الى أين؟ لابد أن تتغدى .

اعتذر القصير :

- لدي مشاغل كثيرة والسائق بانتظاري سوف أذهب الى كويسنجق في مهمة أخرى .

قال كاكا محمود :

- انتظر إذن عندي لك هدية .

ودخل إحدى الغرف ، بينما التفتت نرجس الى القصير وسألته :

- متى ستعود يا أبا عاصم؟

انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة وأجاب :

- الى هنا انتهى دوري ، سيأتي من سيكمله .

ناولته مزكين طاسة لبن شنينة فشربها في الوقت الذي

خرج فيه كاكا محمود وبيده كيس نايلون ، أخرج منه (كيوة) وقال :

- هذه صناعة يدي كما تعلم ، وهذا النعال صنعته خصيصاً لك .

بدا فرحاً مثل طفل وهو يمسك بالكيوة ، ويشكر كاكا محمود ، ثم يلتفت الى الجميع ويقول :

- أستودعكم الله .

وبينما كان يهم بالمغادرة يقول له كاكا محمود :

- خذ حذرك ، إذا أمسكوا بك فلن يشنقوك بالحبل .

توقف القصير ونظر الى كاكا محمود مستغرباً :

- ماذا تقصد كاكا؟

فرد عليه متضاحكاً :

- أقصد لن يجدوا لك رقبة ليضعوا الحبل فيها ، لذلك سيقتلونك بالرصاص .

- هذا أرحم من أحواض التيزاب .

***

توجهت مزكين بضيفتيها الى باب حديدي يقع في نهاية ممر ، ما إن دفعته حتى انفتح على بيت صغير ملحق بالبيت الأول ، ليس فيه سوى مضافة وحمام وحوش صغير مربع ، الحوش مفتوح من الأعلى بوجه السماء ، تتوسطه شجرة تين وارفة ، والمضافة تبدأ من اليمين ، وهي غرفة واسعة مستطيلة ،

لها شباك واحد يطل على الحوش ويشغل نصف جدار ، تنسدل من أعلاه ستارة سميكة مقلمة باللونين الأحمر والبرتقالي ، الأرضية مفروشة بالسجاد المحلي ، بنقوش مميزة وألوان متعددة وزاهية يطغى عليها اللون الأحمر ، وأسفل الجدران ، فوق السجاد ، تستند مخدات صوفية ملونة ، وثمة صور معلقة على الجدار المقابل للشباك مؤطرة بخشب الزان ، لرجال كبار السن وشبان يرتدون الشراويل ، بعضهم يحمل بنادق ويتمنطق بالرصاص ويتموضع وراء صخور ، والبعض الآخر يقف قرب شجرة أو يجلس على سفح جبل ، فيما تحتل صورة ورقية كبيرة لغابة كثيفة الأشجار نصف أحد الجدران ، يختفي جزؤها الأسفل وراء طاولة مستطيلة عليها صحن كبير مليء بأنواع المكسّرات من الجوز والبندق وحب البطيخ واللوز والفستق والكاجو .

مدت مزكين يدها وشغّلت المروحة السقفية ، وجلست نرجس والمرأة على الفرش الصوفية ، ثم استأذنت مزكين وخرجت ، تطلعت نرجس الى المرأة بعينين متساءلتين ، كأنها تريد القول لماذا كذبتِ عليّ وقلتِ بأنك قادمة الى خانقين لزيارة اختك؟ فهمت المرأة نظرة نرجس وقالت :

- يبدو أننا في المحنة ذاتها ، المهمة سرية كما تعلمين ، ونحن لا نعرف بعضنا .

- عندك حق .

قالت نرجس وهي تهز رأسها ، وأضافت :

- الله يفرج الكرب يا . . . . بماذا أناديك؟

- أم هاني . . وأنتِ؟

- أنا نرجس .

- هل سيطول مقامنا في هذا البيت يا أم هاني؟

- لا أدري ، عشت حياتي بالانتظار المر حتى تدربتُ عليه .

عادت مزكين ، حاملة صينية عليها إبريق شاي واستكانات وصحن جبن أبيض ولبن رائب وأرغفة ، رددت بعربيتها المكسرة عبارات الترحيب بتكرار المثل الكردي : البيت عامر بالنساء ، رائحة الشاي وسريانه في الأجساد المتعبة أعطى نرجس بعض الاسترخاء ، لكنها لم تستطع تحمّل جسمها فلقد تعرقت كثيراً طيلة الرحلة ، فطلبت من مزكين أن تستحم ، وبينما هي تفتح حقيبتها لإخراج ثياب ومنشفة قامت أم هاني برفع ثوبها وفكت حزام ظهرها وهي تأخذ نفساً عميقاً وتقول : هذا الحزام يعينني على التعب ، أعاني من آلام الظهر ، فقالت نرجس :

- الله يشفيكِ .

ثمة ساعات طويلة بانتظارهن ، وبئر الروح تكاد تفيض .

مـايزال النهـار مـغـبـراً في بغـداد ، أذان الظهـر ينطلق من مكبـرات الصـوت ، واليـوم جـمـعـة ، يستـيـقظ مؤنس الشـاعـر ويتقلب في الفراش ، يحاول العودة للنوم لكنه لم يستطع فينزل من سـريره ويتوجـه الى الحمام ليغسل وجـهـه . . في مثل هذا الوقت من كل يوم تكون نرجس بنفسيتـهـا الضـجرة قـد بدأت تعـد طعـام الغـداء ، ومن عـادتهـا حـينمـا تغـسل الصـحـون أو تسحب شيئاً أو تضعه في مكانه أن تُحدث ضجيجاً لتنفس عن كـربها ، غـير عـابئة لما يحدثه هذا الضـجـيج لزوجـهـا الذي يأتي كل ليلة مـخـمـوراً ، ينام ملء جـفـونه وتبـقى هي تقـاوم وتصارع في الغرفة العلوية لكـي تسرق القليل من الوقت حتى تنام ، وكثيراً ما أيقظه ما تفعله حتى عند استيقاظها في وقت مبكر من الصباح ، أحياناً يصرخ وهو في سريره وينادي عليها ، إلا أنها لا ترد ، مثلما كانت تفعل في الأيام التي سبقت رمي يمين الطلاق عليها ، لقد وصلت غايتها وانتهى الأمر بالنسبة لها ، وليس لديها سوى الضجر ، تريد أن تكسر أي شيء لعله يريحها ، أن تفعل ما لم تفعله من قبل لتغير مصيرها ، حتى وإن كان تهشيم صحن أو فتح التلفزيون على درجة عالية من الصوت .

لكن نهار هذا اليوم كان مختلفاً . . انتبه مؤنس الى الهدوء التام في البيت ، ليس من عادة نرجس أن تبقى نائمة حتى هذا الوقت ، خرج من الحمام ووقف أسفل الدرج ونادى : نرجس . . . نرجس . . . نرجس ، ولم يصله صوتها ، تساءل : أتكون قد فعلت شيئاً بنفسها ، يعني انتحرت؟ هذا ما فكر به ، لقد رددت على مسامعه مفردة الانتحار أكثر من مرة ، وكانت ليلة أمس سيئة بينهما قبل خروجه للسهرة . . لذلك صعد الدرج الى الغرفة العلوية ليتفقدها ، لم يجدها ، نزل الدرج ثانية وهو يفكر بأنها قد تكون ذهبت الى السوق لشراء بعض الاحتياجات ، دخل المطبخ وأعد لنفسه الشاي ، أخرج من الثلاجة ثلاث قطع من جبنة كيري ورغيف خبز ، وضع الطعام في صينية وحمله الى المائدة ، وضعه قرب صحن المسقول ، فشاهد ورقة مطوية داخل الصحن ، تناولها وقرأ (لقد طلقتني أمام الله فاجهر بالطلاق أمام الناس . . لن تراني بعد اليوم) شلّته المفاجأة لدقائق جلس خلالها دون حراك ، ثم استشاط مثل ثور هائج وألقى بصينية الطعام الى الأرض وضرب بيده صحن المسقول فتطشّرت الكريات الملونة في كل الاتجاهات وتهشم كل ما هو زجاجي ، واندفع الى المطبخ ، أسقط جميع الصحون وأدوات المطبخ من أدراجها لتتكسر على البلاط ، أفرغ السنادين من نباتات الظل ورماها على البلاط فتكسرت ، خرج من المطبخ بيده سكين وصعد ثانية الى الغرفة العلوية ، فتح

خزانة ملابسها وسحب جميع الثياب التي تركتها ليعمل فيها تمزيقاً كما لو أنه يقوم بتقطيع جسدها ثأراً لكرامته المهدورة ، وبعد أن فعل ما فعل نزل الدرج خائر القوى وجلس في الصالة وبكى مثل امرأة فقدت وليدها للتو .

كان ما يزال يبكي حينما سمع جرس الباب ، نظر من الشباك ، فلاحت له أمه ، أسرع الى الحمام وغسل وجهه ونشفه ، ثم فتح الباب ، كانت أمه تحمل كيس خضروات ، حينما دخلت المطبخ لتضع الكيس فاجأتها فوضى الأشياء المهشمة ، صرخت :

- مؤنس ، ما هذا؟ وعندما التفتت كان مؤنس وراءها بوجه لم يستطع أن يخفي عنه حالة القهر التي يحس بها ، بل لم يستطع منع دموعه من الجريان ثانية ، لطمت الأم صدرها وصرخت به :

- ماذا حدث ياولدي . . تكلم؟

كانت كفه تعصر على الورقة فناولها إياها لتقرأها بنفسها ، وحينما فعلت صرخت للمرة الثالثة به :

- أتبكي مثل النساء؟ لماذا طلقتها إذن؟

أراد أن يحكي لها تصرفات نرجس معه في الآونة الأخيرة ، لكن الأم أسكتته بإشارة من يدها ، وسألته أين يمكن أن [illegible] لكي تصلح الأمر بينهما؟ قال مؤنس بأنه لا [illegible] علم فإن الأوان قد فات ، ساد الصمت بينهما ،

أطرق كل واحد منهما ، ثم رفعت رأسها لتقول :

- إذن اجـهـر بالطلاق من أجل حـفظ مـاء الوجـه وإلا سنصبح أضحوكة بين الناس .

قبة السماء تنفتح على السطح المرصوف بالآجر والمسيج بالحجر ، بدت النجوم بعيدة جداً ، أبعد من الأحلام المستحيلة ، والقمر حارس الليل ، متوحّد في مكانه لا شأن له بمخلوقات اللّه على الأرض . . على جانب من السطح رتبت مزكين أماكن النوم ، فالمضافة حارة حتى بوجود المروحة السقفية ، فرشت الحصران ومدّت البسط ثم وضعت عليها مرتبات اسفنجية ووسائد ملونة .

وتمنت لهما نوماً مريحاً ، لا راحة للجسدين المتعبين ، والعيون تأبى الإغماض ، انتهت وجبة العشاء قبل نصف ساعة ، أكلة كردية تسمى الدوينة ، مصنوعة من القمح المجروش المخلوط باللبن والبصل المحمّر بالدهن الحر والمتبّل بالبهارات ، بقي أكثر من نصف الطعام في الصحون لأن تعب الطريق وما رافقه من خوف قد أفقد المرأتين الشهية ، ساد صمت طويل والعيون معلقة باتجاه النجوم ، ليس للاستمتاع بوميضها ، بل لاستدعاء الأماني البعيدة لعلها تأتي مع الوميض .

انفتحت كوة صغيرة للحكي من طرف أم هاني وهي تحرك جسدها باتجاه نرجس :

- هل فقدتِ عزيزاً وتبحثين عنه مثلي؟

أحست نرجس بأن عليها أن تفك عقدة لسانها ، وتسمع من أم هاني حكايتها مادامت المحنة التي جاءت بهما الى هذا المكان واحدة ، فعدّلت من وضع جسمها والتفتت الى أم هاني لتقول :

- نعم .

لكنها أرادت أن لا تكون هي البادئة بسرد حكايتها ، فوجهت دفة السؤال لأم هاني :

- من هو العزيز الذي فقدتيه؟

شقت آهة عميقة صدر أم هاني وقالت :

- إبني .

خفّ وميض النجوم ، كأن آهة أم هاني صعدت واخترقتها ، فأوقفت وميضها لتسمع هي الأخرى حكاية جديدة من حكايات الأمهات اللواتي قشّرتهن الأحزان .

***

لا أحد يلقي عليهم تحية الصباح ، لا يسمعون سقسقة عصفور ولا هديل حمامة ولا صياح ديك يؤذن لطلوع الشمس ، وليس من أحد يمضي إليهم هناك ، ولا من هناك يأتي أحد منهم .

من هم ، وأين الهناك؟ في أي ناحية من نواحي بغداد؟ لماذا تخلت عنهم السماء؟ وكيف استوعبتهم بقعة أرض فعاشوا في اللازمن لا يعرفون كم مضى من أعمارهم ، وكم بقي لهم؟ هم الأحياء الموتى ، أو الموتى الأحياء ، لا فرق ، الغرباء وإن كانوا على مسافة ليست بعيدة عن الأهل ، التعساء الذين نسيتهم القداسات ، حاملو الخطايا بلا خطيئة ارتكبوها ، المنسيّون بلا قبور تعلّم ذكراهم إذا جاء أجلهم ، ثم من يقول إنهم ماتوا حين جاء أجلهم؟ هكذا تتسائل قلوب الأمهات ، ربما أميتوا ليوفروا ثمن الغذاء والدواء ، ويعيدوا للشرف هيبته الهشة ، هذا أفضل لهم ، يقول من بيده أرواحهم ، سيموتون عاجلاً أو آجلاً فلماذا لا نرحمهم ونعجّل بأجلهم؟

البناية أكبر من عمر أي واحد من الجنود الذين يحرسونها ، أكبر بكثير ، شيخوختها واضحة في كل زاوية من زواياها ، دخلها المئات منذ تأسيسها في بداية خمسينيات

القرن الماضي ، ولسنوات طويلة رقد على أسرّتها المرضى ، في كل يوم تتكدس الأجساد المرهقة ، ولا تخرج إلا لبارئها ، وإذا ما خرج أحدهم فذلك أن معجزة هبطت عليه فتعافى .

كان ذلك زمن ولّى ، والمرض معروف ينقله الهواء الى الأصحاء كان جائحة تنتشر من حين لآخر في الأحياء الفقيرة ، فيهرعون بالمريض الى تلك البناية مصحوباً بالدعاء أن يعود معافى لأهله ، ولم يكن في ذلك الوقت حراس يحرسونها بسرية ، ظلت لسنوات طويلة كأي مستشفى آخر ، لا يميزها شيء سوى اختصاصها بمرضى السل . . والآن ، ماذا يفعل جندي يمتشق سلاحه ويقف عند باب مستشفى الأمراض الصدرية؟

الزمن تغير ، هاجر مرض السل بعيداً عن البلد ، ليأتي مرض آخر أشد وأكثر فتكاً ، ليس في الجسد فحسب بل في الروح حين يحفر عميقاً ، ليس ثمة عزاء لهم ، منبوذون ، محرومون من رؤية الأهل ، محاصرون ، صغُر عالمهم وضيّق عليهم حتى غدت المنية أمنية يتمناها كل واحد منهم .

عالم مغلق تماماً ، في مكان يتكرر كل يوم ولآخر يوم من أيامهم في روزنامة الأحزان ، كيف يخرجون؟ وكيف سيعيشون حياتهم مع النظرة الدونية التي تشلع أوتار القلوب؟ أولئك هم مصابو الايدز ، الذين حُجزوا في هذه البناية في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي ، لا أحد خارج هذه الأسوار

يصدّق أنهم ضحايا عقار استوردته الحكومة للعلاج فإذا به ملوث بهذا المرض اللعين ، حتى لو عرف الناس ذلك فإنهم لا يبالون إلا بما سمعوه أول مرة من أن سبب المرض هو العلاقات الجنسية الشاذة ، سيصرخون حالما يذكرهم أحد بالمرض : أعوذ بالله ، هؤلاء أبناء الشياطين يجب قتلهم ، هكذا يفتون بقتلهم ، فلماذا يخرجون ويموتون علانية فتتبعهم اللعنات؟ الله وحده العالم بحالهم ، ينتظرون الرحمة منه ، رحمة الموت الإلهي وليس القتل البشري .

من قلبها المثقوب خرجت الحكاية ، وانفتحت بئر القلب المكلوم ، بلعت أم هاني ريقها الجاف وقالت : حجزوا اثنين من أولادي ، كانا يتلقيان العلاج من مرض نزف الدم الوراثي (الهيموفيليا) وتبين أن العقار الذي جيء به خصيصاً من فرنسا ملوث بالايدز ، فسرى المرض في أجساد كل من تعاطاه من الرجال والنساء والأطفال ، واعتقلوا عائلة كل مريض مجرين الفحص عليهم ، بعض الأفراد كان المرض قد انتقل اليهم من ذويهم فتم حجزهم ، وفي حالة موت أحد المرضى فإن الأهل يجبرون على توقيع وثيقة تؤكد وفاتهم بمرض آخر ، لكي يخلي النظام مسؤولية الشركة الفرنسية مقابل صفقة الأسلحة مع فرنسا فهو بأمس الحاجة إليها في حربه مع إيران ، أما جثث الموتى فلا تسلّم الى الأهل وإنما تُحرق وتدفن في الصحراء .

تبلع أم هاني ريقها الناشف ، وتواصل :

- وقد ظننت أنهما على قيد الحياة طيلة السنوات التي مرت ، وبعد محاولات مستميتة ورشاوى لأحد الحراس عرفت بأن ولديّ ماتا بعد سنة من حجزهما ، وزودني بنسخة مصورة من شهادة الوفاة لم يُذكر فيها بأنهما ماتا بالايدز وإنما بمرض آخر ، وفي ذيلها توقيع زوجي الذي لم يسبق أن استدعاه أحد ، وبعد فترة وجيزة مات زوجي بمرض السرطان ، وحُجزت جثته لعدة أيام قيل لي للتأكد من سبب الوفاة لئلا يكون قد مات بمرض آخر ، يقصدون الايدز ، وبعد موته استمرت مداهمات البيت ، في كل مرة لهم حجة ، ويطلبون مني السكوت ونسيان أن لديّ ولدين ، لكنني لم أسكت ، صارت مهمتي فقط هي العثور على جثتي ولديّ ، ولكن في أية صحراء أعثر عليهما؟ لا أدري ، هل أحفر صحارى البلاد الشاسعة لأستدل عليهما؟

التمّت تجاعيد جبينها بخطوط داكنة ، كل خط يحكي موتاً مؤجلاً ، صبّت لها نرجس الماء في طاسة برونزية ، من سراحية تركتها لهما مزكين بالقرب منهما ، وبعد أن شربت القليل من الماء سألتها نرجس :

- إذن عن أي ولد تبحثين؟

اختنقت أم هاني بالكلام وهي تقول :

- أبحث عن ابني الثالث نمير ، حبة القلب وآخر العنقود ، كان عمره خمسة عشر عاماً حينما حُجز أخواه ، لم يكن مصاباً بالايدز ، عاش بين الخوف والعوز والمداهمات ، ثم حين أكمل

الثامنة عشرة سيق للخدمة العسكرية ، في أقصى الشمال فقرر الهرب ، حاولت أن أثنيه لكنه كان عازماً ومصمماً ، أسرّني بأنه سيهرب لأن حروب النظام لن تقف عند حد وأنه تعب من هذه الحياة وإن لم يهرب سينتحر ، خفت عليه وقلت له لو أمسكوا بك فأنهم لن يرحموك ، لكنه طمأنني بأنه سيمضي الى مكان آمن عند صديق كردي تعرف عليه ، ومن هناك سيمضي الى تركيا ، لم يقل لي في أية مدينة سيكون ، كل ما أعرفه هو اسم صديقه الكردي كوران دلشاد بختيار ، حفرته في ذاكرتي وكتبته على ورقة صغيرة لكي لا يضيع مني .

ولم أعثر على ولدي ، لم يأتني منه خبر ، لا أعرف في أية بقعة عاش أو مات ، لم أكف عن البحث على الرغم من تضييق الخناق على تحركاتي ، كثيراً ما ادّعيت الجنون حتى صدّقوه لكي يخففوا عني مراقباتهم اللعينة ، مررت بكثير من مدن الشمال في السليمانية وأربيل ودهوك وكركوك ، مشيت في المسالك الوعرة ، مررت بالقرى الجبلية والسهلية أبحث عن الكردي كوران دلشاد بختيار ، ولا أثر له ، كأنه مجرد اسم لرجل لم يخلق بعد ، البعض سخر مني والبعض الآخر تأسى لمصيبتي ، قالوا لي إنني أبحث عن إبرة في أطنان من القش ، [illegible] لا يضيرني ، سأفتش أطنان القش كلها لأعرف إذا ماكان [illegible] أو ميتاً كي أستريح ، إذا كان حياً سأراه ، وإذا كان [illegible] وسألتقيه عند الله ، وأخيراً جاء من أشار لي

بالسفر الى خانقين ، وكنت قد جئتها قبل أربعة أشهر لزيارة مرقد الولي الصالح خضر الياس ، فقد قيل لي بأن كراماته بيّنة ، وإذا مازرت جميع مقاماته فسوف أعرف مكان ولدي ، فزرتها في بغداد و البصرة والديوانية ، والمثنى والبصرة وميسان وخانقين ، وسيّرت له الشموع على كرب النخيل فأخذها الماء ولم تنطفىء ، وهذا ما بث لي أملاً بأن ابني نمير ما يزال على قيد الحياة .

صمتت أم هاني ، ليس لأنها استنفدت الكلام ، بل لتخفف من وهج النار التي استعرت في قلبها بعد أن كانت تحت رماد ساخن ، ولتترك لآهاتها الامتداد الذي يعيد لها التوازن ، أو ربما نسيت تفصيلاً مهماً لم تقله من حكايتها .

أصغت إليها نرجس بكل جوارحها وتفاعلت معها ، وبدا جلياً لها أن معاناتها أقل بكثير مما كانت تعتقد ، حينما نصغي للمصائب الكبيرة ، تصغر مصائبنا .

لم يطل الصمت ، سألتها نرجس :

- هل أنتِ واثقة من معلومات الشخص الذي أشار لكِ بالسفر الى خانقين؟

كانت أم هاني في هذه الأثناء تدفع دموعاً لا تريد لها الانسكاب ، مسحت عينيها بمنديل أخرجته من جيبها ، وقالت :

- مادامت لي قدمان ، وعزيمة لا تلين ، فأنا أتبع حتى

السراب ، لقد نصحتني قريبة لي بالتريث ، وقالت لتضع حداً لهوسي بالبحث عن نمير : لو كان على قيد الحياة لعاد لكِ بعد كل هذه السنين ، وقلت لها وأنا أهم بالسفر : إذن سأعرف قصته وأصل الى قبره من كوران دلشاد بختيار .

أعادت نرجس سؤالها بصيغة أخرى ، فلعل من أشار عليها بالسفر الى خانقين هو نفسه ، من أرسل المعلومة عن يوسف :

- لم تقولي لي ، كيف وصلتكِ المعلومة؟

ردت المرأة على الفور :

- من رجل صالح يعيش بيننا منذ مئات السنين لكننا لا نراه ، بل نحسّه .

حيرت إجابتها نرجس وحرضتها على الاستفهام ، فأردفت أم هاني :

- من الولي الصالح خضر الياس .

عند هذا الحد راود نرجس إحساس بأن هذه المرأة تعاني من اضطراب نفسي ، فطغت على وجهها نظرات شفقة ، إلا أن أم هاني بددت ظنون نرجس بالقول :

- يا ابنتي ، عندما يكف العلم عن الإجابة ونسقط في اليأس تنتشلنا أرواح الصالحين من الأولياء وتأخذ بأيدينا ، وهذا ما فعله الولي خضر الياس ، فبعد زيارتي لمقاماته وتسيير مئات الشموع على سطوح الأنهر لإيصال الدعوات إليه ليوصلها

بدوره الى الله ، جاءني في رؤيا ، وقال لي : خانقين رحلتك الأخيرة ، فيها الحد الفاصل بين الحياة والموت .

لم يعجب نرجس كلام أم هاني وثقتها بالأولياء الصالحين ، لا يحتاج الله الى وساطة بينه وبين عباده ، لكنها لا تريد أن تحبط هذه الأم المأزومة ، واكتفت بالقول :

- الله يعطيكِ على قدْر صبرك في مسعاكِ .

لم تعد النجوم ترسل إلا القليل من الضوء ، كأنها ابتعدت ، والقمر انزوى في مكان بعيد ، والليل امتد الى مابعد منتصفه ، توقفت أم هاني عن الكلام ، شعرت بتعب ، فهذه الحكاية ، حكاية ترحالها لأجل العثور على ابنها المفقود ، حكتها مئات المرات ، لمن يعرفها ، وللعابرين في الطرقات ، ولأئمة المساجد التي تنام فيها في المدن الغريبة ، ولشيوخ العشائر في الشمال بحثاً عن كوران دلشاد بختيار ، لقد تعبت بما فيه الكفاية .

- وأنتِ؟

فاجأ السؤال نرجس ، كأنها لم تحسب حسابه ، ماذا ستقول إزاء هذا الهم الثقيل لهذه المرأة الصابرة؟ جئت أبحث عن حبيبي ومن أجله تخلصت من زوجي؟ كيف ستتفهّم هذه المرأة مشاعرها وهي التي ثُكلت بثلاثة أبناء؟ وبماذا سترد عليها؟ ربما سيكون ردها قاسياً ، يا لها من حيرة ، عادت للتمدد على ظهرها ، واجهتها النجوم بضوء شحيح ، وأجابت إجابة شحيحة هي الأخرى :

- أنا فقدتُ زوجي .

نكذب أحياناً ليس لأننا كذابون بطبيعتنا ، لكن لنخفف من وطأة الحيرة ونتخلص من سخرية الآخرين ، هكذا تصرفت نرجس ، لكي لا تسخر منها أم هاني إذا ما علمت أنها تركت زوجها من أجل رجل تحبه ولا تدري إن كانت ستراه أم سيضيع هو الآخر تحت أطنان من القش ، هناك فرق بين الزوج والحبيب في التقاليد التي نحتمل أثقالها منذ آلاف السنين .

وأضافت لكي لا تضطر لمزيد من الأكاذيب التي تحتمها لحظة المفاجأة :

- سأحكي لكِ في وقت آخر ، أما الان فأشعر بالتعب؟ تصبحين على خير أيتها الأم المجاهدة .

- وأنتِ أيضاً تصبحين على خير يا ابنتي .

لكن نرجس لم تنم ، تحركت مخيلتها في الليل الساكن لترتجل حكاية فقدانها لزوجها ، لأنها ستكون مضطرة للإجابة على سؤال أم هاني إذا ما تكرر ، هذا إذا لم يحدث أي طارىء يغير مجرى وجودها في هذا البيت ، كانت مكتئبة وغير واثقة تماماً من سلامة نية من أعد رحلتها ، ربما كانت طعماً لفخ سيأخذها الى وجهة أخرى ويعيدها الى بغداد ، ليس الى الشوارع والناس والحياة الطبيعية ، وإنما الى الموت البطيء في الدهاليز المظلمة التي تديرها الشياطين ، يخيفها الأمر حقاً لكن قوة هائلة تنتشلها كلما سقطت في اليأس وتعيدها الى الصواب

في كل حين ، ثم لا يلبث الصواب أن يغادرها فتسقط في دائرة القلق ، ما عليها الآن سوى أن تسبك حكايتها .

في ظلام الليل تحركت الصور ، هبطت عليها مع وميض النجوم الخافت : أخذوه عند الصباح ، من الدائرة التي يعمل بها ، قالوا له مجرد دقائق وتعود ، الأمر لا يتعلق بك ولكن بشخص آخر ، وهناك ، في دائرة الأمن لم يعد للدقائق من زمن ، ساعات وساعات ، ثم أيام وأيام ، وتعنيف وترهيب وعذابات لا تنتهي ، كل ذلك لأنه كان صديقاً لموظف معه هرب من البلد وانتمى الى المعارضة ،لم يسمحوا لي برؤيته ، ثم أخذوه الى جهة مجهولة ومن يومها لم يعد . . . هذه هي الحكاية ،ليس ثمة من جديد فيها ، حكاية تكررت وتتكرر منذ عشرات السنين ، فالمئات غيّبوا بالطريقة نفسها ،لن تدخل في تفاصيل أكثر ، ستقول بأنها لا تعرف الكثير ولذلك جاءت الى هنا .

صباح جديد ، ماذا سيرشح عنه؟ أول صباح في مدينة شمالية بانتظار رجل آخر سيقوم بإكمال ما انتهى إليه الرجل القصير أبو عاصم ، تحركت الأشياء في فضاء الحوش ، أسراب عصافير تخرج من قلب شجرة التين ، صياح ديكة ، روائح نباتات تعطّر الأجواء ، أصوات بعيدة يطوّح بها الهواء . . يوم جديد فهل من جديد؟

كاكا محمود يستعد للخروج الى دكانه في سوق المدينة ، يعمل بصناعة الكيوات ، والكيوة هي حذاء تراثي يصنع يدوياً من أجود الخيوط القطنية البيضاء ، ويثبّت على قاعدة من جلود البقر بواسطة خيوط قطنية ملونة ، هذا النوع من الأحذية يناسب المناطق الشمالية من البلاد حيث وعورة الأرض وكثرة الجبال التي لا يمكن صعودها بالأحذية العادية ، تساعده زوجته مزكين ، لكنها تعمل من داخل البيت .

طوت أم هاني فراشها وأنزلته معها الى المضافة ، ركنته في إحدى الزوايا ، توضأت وصلّت ، ثم جلست لتسبّح وتتلو االأدعية ، استيقظت نرجس بعد ذلك فحملت فراشها ونزلت ، ألقت التحية على أم هاني وأخبرتها بأنها نامت نوماً قلقاً ، ثم اتجهت الى الحمام لتغسل وجهها ، ولما عادت كانت مزكين قد

دخلت من الباب الحديدي ، صبّحت على ضيفتيها وهي تحمل صينية ، القيمر في صحن كبير والعسل في زجاجة صغيرة ، وقوري الشاي والأقداح وأرغفة الخبز ، وبعد قليل سمعن كاكا محمود يتنحنح ليعلن عن مجيئه ، قالت مزكين بانه يريد أن يسلم عليهما قبل خروجه الى العمل ، دخل كاكا محمود وسلم على الضيفتين ، ثم قال ليطمئنهما : كل شيء تمام ، نحن بانتظار كاكا طارق . . لم تسأل أي واحدة منهما من هو كاكا طارق ، كانتا تعرفان بأنه يقصد الدليل الجديد ، وكانتا على يقين من أنه سيجيء . . ولكن متى سيجيء؟

بين مجيء كاكا طارق والوقت المشحون بالترقب ثمة حكايات ستخرج كاشفة عن تفاصيل ماكان لنرجس أن تعرفها لولا هذه الرحلة التي لا تعرف إلى أين ستنتهي ، وإذا ما انتهت من دون أن تجد يوسف ، وهذا ما سيقلقها ، هل ستعود الى بغداد؟ ماذا ستفعل هناك؟ كم عدد الذين سيرجمونها بحجر معتقدين أنهم بلا خطيئة؟ وماذا لو تعرضت لاستجواب من الجهات الأمنية ولم تخرج منه سالمة؟ أم أن من الأفضل لها أن تظل مختبئة في خانقين ، باحثة فيها عن حياة أخرى؟ هل هي في مأمن هنا وعيون السلطة تلاحق حتى الأشباح في المنحنيات والطرق وكهوف الجبال؟ ومن هؤلاء الذين يعملون على إيجاد المفقودين؟ ولأية جهة يعملون وما هي مصلحتهم؟ من هو أصلاً محسن العلوان ، وأبو عاصم ، وكاكا محمود وكاكا

طارق؟ كل شيء بدا لهـا ملغـزاً وغـيـر مـفـهـوم في تلك اللحظات . . آه يا نرجس كم الوقت مربك وليست له توقعات ثابتة .

قالت مزكين لتؤكد كلام زوجها :

- اطمئنا سيأتي كاكا طارق ، ولكن مجيئه مرتبط بتأمين تحركاته ، يفهم عمله جيداً ، سأخرج الآن الى السوق لشراء الخضار ، لا تردا على أحد إذا طرق الباب ، زوجي محمود لن يعود إلا في آخر النهار .

من يطرق البـاب؟ لا أحـد ، مـجـرد حـيطة من مـزكين لامرأتين غريبتين ، وكان الوقت خانقاً وباب المجهول مايزال مغلقاً وبعيد المنال . . تحسّبت نرجس للسؤال الذي لابد لأم هاني أن تعيده عليها بشأن اختفاء يوسف ، تململت في جلستها وفكرت أن تبعد المرأة عن السؤال أو على الأقل تؤخره فقالت :

- مـاذا تفـعلين حـينمـا تسـقطين في بئـر اليـأس من محاولاتك المريرة لمعرفة مصير ابنك؟

لم تتأخر أم هاني في الإجابة ، كأنها واجهت مثل هذا السؤال من قبل ألف مرة :

- لو كان لليأس مكان في قلبي لما التقينا في هذه المحنة ، أنا يا ابنتي مجبولة من صبر عنيد ، والمصائب التي مررت بها لم تسقطني ، وإلا لكنت تحت التراب منذ زمن بعيد ، أنتِ مازلت صغيرة على تجارب الحياة القاسية ، استوعبيها واستعدي

لها قبل أن تسقطك في اليأس .

- على قدر العزيمة التي في داخلي فإن الخوف يسكن قلبي؟ كيف أطرد الخوف يا سيدتي؟

- دعيه يأخذ وقته وينتهي ، عندما نخاف من شيء نفكر كيف نتجنبه فلا نسهو ، وهذا ما عملت عليه ، لو كنتُ أخاف من السلطة مثلاً لقبعت في بيتي أنتظر موتي من دون أن أعرف مصائر أبنائي ، هل تظنين بأنني شجاعة بدرجة كبيرة؟ كلا ، جرعة من الشجاعة وجرعة من الخوف معاً للتواصل مع قانون الحياة .

- لكن قانون الحياة ليس عادلاً .

- هو عادل لكن البشر تلاعبوا بعدالته .

- نحن في زمن هواؤه ملوث بالدم .

- وأي زمن لم يلوث بالدم؟ منذ بدء الخليقة ، منذ أول جريمة في التاريخ كان الخير ضحية الشر ، هل يوجد أكثر إيلاماً من قتل الأخ لأخيه؟ قابيل قتل أخاه هابيل ، لكن الناس تسمي أبناءها باسم القاتل قابيل ، ولا أحد يطلق اسم هابيل على ابنه كأنهم يطردون الخير من نفوسهم ، المؤلم يا ابنتي في قضيتنا أننا لم نعثر على أحبائنا ، لم نُقم لهم العزاء ، لم نعرف على أية أرض ماتوا وأية أرض احتوت أجسادهم .

- يبدو أنكِ واثقة من موتهم ، وأن ما تسعين إليه هو إيجاد الجثامين .

- ليست ثقة مطلقة ، قد يكون الحارس الذي سلمني وثيقة موت ابنيّ قد زوّر فيها وسرق الختم وختم لكي يبعدني تماماً بعد أن أخذ الفلوس ، أنا مؤمنة بأن المعجزات ما تزال موجودة ولا تأتي إلا بأوانها ، لكنني أفترض أسوأ النتائج لكي لا أقع فريسة للوهم والعجز ، وإذا كان ولداي قد ماتا فعلاً فعليّ أن أجد ابني الثالث لأن أحداً لم يأتني بخبر عنه حتى الآن .

- مازلت يا سيدتي غير واثقة بالأدلاء تماماً ، تخامرني أحياناً مشاعر تخلخل الأمل داخل نفسي فأشعر باليأس .

- أزيحي عن ذهنك الشعور باليأس إذا أردت الوصول لهدفك ، بالنسبة لي فأنا لا أضيّع وقتاً ، ولا أدّخر جهداً ، ولا توقفني العثرات .

على هذا المنوال ، بين سؤال وجواب ، بين أن يأتي كاكا طارق ، وبين أن يحدث شيء ما يغير الخطط ، مر الوقت ، وعادت مزكين من السوق لتطل على ضيفتيها ولا تتحدث بأكثر من الجمل القصيرة المطمئنة ، حتى جاء وقت الغداء ، ولم يطرق الباب أي طارق .

***

أحضرت مزكين طعام الغداء ، رز بالزعفران وقطع دجاج محمصة ولبن رائب وسلطة خضار ، عينا نرجس تتعلقان بملامح مزكين لعلها تكشف لها أسباب تأخر كاكا طارق ، لكن مزكين ، بابتسامتها المقننة تبدد الأسباب ، كل شيء بأوانه ،

هكذا تقول ملامحها ، وهذا ما يتردد على لسانها بين جملها القصيرة التي كثيراً ما تتخللها الأمثال الكردية ، وضعت الطعام أمامهما وانصرفت .

لاحظت أم هاني قلق نرجس وضجرها طيلة الوقت ، فقالت لها بعد أن تناولا الطعام وشربا شاي الكجرات :

- دربي نفسك على الصبر مثلي ، أنا يا ما انتظرت ، وياما وضعني القدر بمواجهة الموت ، وياما رأيت ما لم يره غيري .

- ماذا رأيتِ يا سيدتي؟

- رأيت الأهوال يا بنتي .

- إحكِ لي لكي تهوّني عليّ ما قد يمر من مصاعب .

قبل أن تحط تلك الأهوال على شفتي أم هاني ، خرجت آهة طويلة من أعماقها ، آهة توقفت قبل أن تصل نهايتها ، فقد سمعتا ثلاث طرقات منغمات ، تلتها ثلاث بالنغمة نفسها ، وهذا ما فعله أبو عاصم من قبل ، كأن شيئاً ما أخرس المرأتين ، توقفتا حتى عن حركة الأنفاس وعيونهما الى باب المضافة بانتظار أي خبر من مزكين التي لم يطل غيابها ، افرجها يا صاحب الفرج ، قالت أم هاني حالما دخلت مزكين التي أشارت الى أم هاني وقالت :

- جاء كاكا طارق ، أنتِ يا سيدتي تعالي معي .

نهضت أم هاني دون إبطاء ، وقالت نرجس وهي تنظر الى مزكين :

- وأنا؟

- بعدين .

وقبل أن تغادر المضافة تقدمت أم هاني من نرجس وحضنتها ، متمنية أن ينفتح لها باب الفرج هي الأخرى ، مرت الدقائق ثقيلة على نرجس وتصلّبت عيناها على الباب ، كانت تظن بأن أم هاني ستعود ، لكن طال انتظارها لما يقارب النصف ساعة ، والوقت يهرسها ، لم تصبر ، قامت ووقفت لصق الشباك ، بمواجهة الباب الحديدي الذي اختفت وراءه مزكين وأم هاني ، ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب ، جاءت مزكين بقدح عصير ، أخذته نرجس من يدها ووضعته على الطاولة لتسأل :

- ما الأخبار؟

دفعت مزكين إحدى ضفيرتيها لتستقر وراء ظهرها وقالت :

- ذهبت صاحبتك مع كاكا طارق .

- وأنا ماذا عني؟

- ستنتظرين حتى عودته ، كاكا طارق لا يذهب الى مكانين مختلفين في وقت واحد .

- ومتى سيعود؟

- عندما ينتهي من المهمة الأولى .

- بتقديرك ، متى سينتهي من مهمته الأولى؟

- اعذريني ، لا أعرف .

صار الوقت أطول وأثقل بعد رحيل أم هاني ، لا تدري إن

كانت ستعود الى هذا البيت أم هي المرة الأخيرة التي ما بعدها سوى الذكرى ، وهل حقاً ذهبت أم هاني الى مكان آمن ، أم أن الأمر كله خدعة ، يأتون بالأشخاص المشكوك بهم بحجة مساعدتهم ثم يلقون بهم الى الهاوية ، لا تدري نرجس ، في هذه اللحظات على أية ضفة ستقف ، ضفة السلام مع النفس أم ضفة القلق الدائم والشك مما سيأتي .

وعندما هبطت الظلمة ، وسكن كل شيء إلا بعض خفقات قليلة وصفقات أجنحة تتسلل إليها من بين أغصان شجرة التين ، شعرت نرجس بشيء يعصر قلبها ، وبإحساس من يريد الصراخ عالياً ، فركت صدرها وأخذت نفساً عميقاً مُقاوِمة الصراخ ، احتمت منه بذكرياتها مع يوسف .

الذكريات تأخذها بعيداً ، الى أذان المغرب ، حيث موعد اللقاء اليومي على سطح الدار ، وانشغال الأهل بالصلاة ، يتكلمان معاً على عجالة ويتواعدان على اللقاء في مكان آخر بعيد عن سطوة الأهل والشارع والناس الذين يعرفونهما ، وغالباً ما كانت تلك اللقاءات تتم في متنزه الزوراء ، أو في مكتبة مخلص فاروق ، حينما تفتعل نرجس ألف عذر لتقنع امها بضرورة الخروج . . كتاب تحتاج إليه في المكتبة الوطنية أو في شارع المتنبي . . صديقة مريضة ومن الواجب عيادتها ، أبو إحدى صديقاتها في المدرسة مات ولابد من تقديم العزاء ، حتى إذا اضطرها ذلك أن ترتدي قناع الحزن وتسكب الدموع

وتلبس ثياباً داكنة للتمويه ، وسوى ذلك من أعذار ، إنها تتقن على الدوام فن الإقناع لتحتال على امها وتلتقي بيوسف .

تخرج الذكريات من مكامنها ، تنث مثل مطر شفيف ، تكاد تسمع صوته ، ضحكاته ، أنفاسه ، ترى المروج الخضر في عينيه ، انتظارها هطول الليل وسكون البيت وتسللها الى السطح ، تُحس كل كلمة حب عاشتها وكل لمسة ارتعشت لها ، تستعيد أحلى ذكرياتها بالأحاسيس التي انبثقت ذات مساء . . على ثوبها الكهرماني تستقر زهرات منقوشة بلون بنفسجي ، كأنها تتفتح للتو ، في الجو تعبق رائحة قداح تأتي من حديقة بيته فتثير الرغبة للمضي بعيداً ، يحتويها بذراعيه ، تدس رأسها في صدره ، تتحسس دفأه ، تتشرب رائحته ، يسري دبيب في جسدها حينما يتلامسان ، تتمنى لو انصهرت فيه حتى نهاية العمر ، يدس أصابعه في شعرها الليلي الطويل ، فتتفجر اللذائذ ، لا أحد يراهما ، يحتميان بالعتمة ملتصقين بالسياج ، عتمة يخترقها ضوء قمر بعيد يتلصص عليهما ويبارك حبهما .

يا لذلك الدفء والهياج وهي بين يديه ، تتسلل أصابعه نازلة على رقبتها ، تتحرك يداها لتبعد أصابعه ، لتحد من النار المشتعلة في جسدها ، لكن يديه القويتين تسحبانها نحوه ، وتشع عيناها تحت ضوء القمر ببريق يغوي شفتيه ، هناك ، عند السياج الواطىء الذي يفصل بين البيتين الملتصقين من الخلف ،

يقترفان القبلة الأولى ، القبلة التي لن يبرح طعمها شفتي نرجس طيلة ما سيمر من سنين عمرها ، هكذا ، مثل صورة فوتوغرافية طبعاها وأخفياها في أعماق روحيهما ، صورة تتحدى الزمن بالبقاء داخل إطار الأحاسيس الملتهبة .

تغمض عينيها لتستعيد تلك القبلة التي كانت خليطاً من إثارة ونشوة واضطراب وعصف ، ولتبقي طعمها على شفتيها أطول فترة ممكنة .

في تلك الليلة ، بعد أن ابتعدت الشفتان الملتهبتان ، أصابها دوار الحب فلم تعد تتوازن ، وبان وجهها الخجول أمام عينيه ، فلم تجد الا الهرب متعثرة ، نزلت درجتين أو ثلاثاً ، ثم جلست لتُسكت أنفاسها اللاهثة ، وتدوزن إيقاع نبضها قبل أن تدخل غرفة نومها وترمي بجسدها الثمل على الفراش لكي تنام ، لكنها لم تنم ، كان جسدها متوهجاً ، ملتهباً ، ساخناً كما لو أن الحمى سرت في كل مفصل من مفاصلها .

الآن ، تبدو لها مذاقات الحب تلك كما لو أنها حلم عبر ذات ليلة ولم يتكرر ، أو غيمة هطلت وانتهى أمرها ، أو كأنها من صنع مخيلتها . .لا تدري كيف مرّ الليل وهي تلتحف ذكرياتها ، ومتى توقفت الذكريات وهربت الصور ، لكنها تدرك تماماً أن حبها ليوسف مع كل ما مر به من انتكاسات ، هو الشيء الوحيد الذي يجعلها تحس بأنها على قيد الحياة ، فقد لعبا وكبرا ، واقتسما أحلامهما معاً ، وظل رجل حياتها حتى

بعد اختفائه وانقطاع الأمل بعودته .

***

جاءت مزكين حاملة إليها الفطور ، قيمر وعسل وخبز وشاي ، صبّحت عليها ووضعت الصينية على الطاولة وهي تقول :

- ستفرج بإذن الله .

ظنت نرجس بأنها ستتلقى خبراً عن وصول كاكا طارق ، تحولت عيناها الى علامة استفهام كبيرة ، لكن مزكين خيبت ظنها :

- قد يطول الأمر يا سيدة نرجس لكن ستفرج ، هكذا هي الأزمات ، تشتد ثم تفرج ، أحياناً تأتي المساعدة في يوم ، وأحياناً عدة أيام ، البلد من شماله الى جنوبه مزروع بمخبري السلطة ولابد لعمل الأدلاء أن يكون بمنتهى السرية ، المثل عندنا يقول : لا تقترب من الكلب المسعور ، هذا ما أرادني أن أقوله لك زوجي محمود ، تناولي فطورك وكوني مطمئنة كأنك في بيتك .

***

في المطبخ الصغير الذي تملأ دكته أصص نباتات الظل ، والمفتوح على حديقة خلفية صغيرة مزروعة بالورود والشجيرات ، وقفت مزكين تغسل الخضار ، قدمت لنرجس قبل ذلك شراب الماستو ، وهو عبارة عن زبادي وملح مخلوط

بالماء ، الوقت قبيل الظهيرة ، وكانت قد طلبت منها أن تساعدها في إعداد الغداء بدل أن تجلس وحيدة تأكلها الظنون ، تضع السلق والكزبرة في مصفاة بعد غسلها وتقول لنرجس :

– هل تذوقتِ الترخينة من قبل؟

ترد نرجس :

– كلا ، ولم أسمع بها .

– تُصنع الترخينة من حبوب القمح ، ويضاف إليها اللبن الناشف والكزبرة واللوبياء والسلق ، وطبعاً مع التوابل والبصل .

ثم تروح مزكين كأنها في صف تعليم ، تحكي عن المقادير وطريقة العمل .

لا يبدو أن نرجس تستوعب كل ما تقوله مزكين ، الهم يعصرها ، وانتظار المجهول يثقل عليها ، ومن حين لحين ، عندما تلتفت مزكين مبتسمة لها ، تبادلها نرجس الابتسامة ، لكنها لا تدري ماذا قالت قبل ابتسامتها تلك ، وحين تكون وحدها تذرع المضافة رواحاً ومجيئاً ، من الجدار العريض المقابل للباب الى الشباك ، ومن الشباك الى الباب ، ومنه الى الجدار ثانية ، ثم الى الشباك ، تقف هناك وترمي بصرها الى الحوش ، الى شجرة التين وعصافيرها الصاخبة ، والفراشات الملونة التي تحط على الأزهار وترتشف رحيقها ، وتتمنى لو أن الكون خلا من البشر ولم يبق فيه سوى العصافير والشجر والفراشات والحيوانات الأليفة ، لكان كوناً أحلى وأرق وأجمل من هذا

المخلوق الذي اسمه إنسان ، والذي عبث بالطبيعة وقتل بني جنسه . . وحين تتعب من الرواح والمجيء لا تجد إلا أن تستحضر يوسف وتعيد زمنه البهي لتخفف من ثقل الوقت الذي يجثم على صدرها .

الغابة كثيفة ، عميقة ، غامقة الخضرة ، جذوع أشجارها متينة وسامقة ، يشقها درب ترابي ضيّق وطويل ، لا يبدو أنه ينتهي بنهاية الصورة ، الوقت يجثم على صدر نرجس كما الجبال ، وحدها في الغرفة تتمعن في الغابة الورقية الملصوقة على طول الجدار ، تدخل الى تفاصيلها ، تخال نفسها تمشي في هذا الدرب حافية ، حتى لكأنها تحس برطوبة التراب تحت قدميها ، وتشم روائح النباتات لتنعم بالسلام ، ثم تصل الى منتهاه لتجد يوسف ينتظرها هناك فتستعيد معه تلك السعادات الهاربة ، لها أن تتخيل ذلك وتجترح معجزة اللقاء لتتحايل على الوقت الذي لا يسير الى الأمام ، لكن اللقاء يجري على غير ما تمنت ، تراه غاضباً منها ، يكاد غضبه يُشعل الغابة ، لماذا تزوجتِ يا نرجس؟ ولماذا جئتِ تبحثين عني؟

وقبل أن تبرر فعلتها بشرح الظروف التي استجدت في حياتها بعد اختفائه تسحبها مزكين الى الواقع ، حين تدخل مسرعة ولاهثة ، تمسك نرجس من يدها بقوة وتحثها :

- بسرعة ، اختبئي .
- ماذا حدث؟
- لا تخافي ، مجرد إجراء احترازي ، كل شيء آمن هنا .

أزاحت مزكين الطاولة المستطيلة وأمسكت بالإطار الخشبي في أسفل صورة الغابة ، رفعته فبان درج حجري متجه نحو الأسفل ، دفعت نرجس أمامها وهي تقول :

- اهدئي ، كل شيء محسوب حسابه .

الظلام يواري نرجس ، تبدده مزكين بفتح بطارية صغيرة في يدها ، تعطيها الى نرجس وتحثها :

- انزلي الدرجات بسرعة وسيري على هدي هذا الضوء ، وبعد أن تصلي الى نهاية النفق اجلسي هناك ثم اطفئي البطارية ، لا تعودي أبداً حتى تسمعي صوتي ، وإذا سمعتِ حركة مريبة تدخل النفق من هنا عليك الخروج من الجهة التي أنتِ فيها ، يوجد ما يشبه الصخرة لكنه ليس بصخرة ، إنه فلين مصبوغ ، ادفعيه واخرجي ، وستجدين من ينقذك على بعد أمتار قليلة . . ثم تركتها وأنزلت صورة الغابة من ورائها .

تندفع نرجس في النفق المحفور تحت الأرض ، تضغط على البطارية بأصابع مرتعشة ، أنفاسها تتلاحق ، ودقات قلبها تتسارع وتتضخم ، الهواء مضغوط ، والمكان رطب وخانق وله رائحة عفن ، تكاد تركض على ضوء البطارية ، تنتبه الى أنها لم تلبس نعالاً في قدميها ، لا تلتفت ولا تدري طول المسافة التي عليها قطعها ، بدا لها النفق لا نهاية له ، لا تشعر بأنها تتوازن ، لعل ضغطها هبط أو ارتفع ، أسقط الخوف فجأة من يدها البطارية فانطفأت ، عمّ ظلام مخيف ، انحنت باحثة

عنها ، حجارة الأرض تخدّش باطن قدميها ويديها ، تزحف وتبحث ، حتى وجدتها وأمسكتها بقوة كمن يمسك بعشبة الخلود لتعيد إليها الضوء ، داست على شيء رطب ، سمعت هسيساً ناعماً يشبه الصرير لعله صوت فأر ، اندفعت بأسرع ما تستطيع قدماها ، النفق ليس طويلاً ، لكن الخوف أعطاه امتداداً أكبر .

وحين وصلت الى نهايته جلست على الأرض ، أمسكت بالفلين ، حركته قليلاً لتتأكد من أنه ليس صخرة ضخمة لا يمكن زحزحتها ، حاولت أن تسيطر على أنفاسها ودقات قلبها دون جدوى ، أطفأت البطارية فاختفت أبعاد المكان ، وجهها بالاتجاه الذي جاءت منه ، ورأسها تتناهبه الأفكار السيئة ، لابد أن يكون البيت قد تعرّض للمداهمة؟ ماذا يحدث لو عرفوا طريقها؟ أي مصير سيرسمونه لها؟ ماذا ستقول إن أمسكوا بها وجرجروها الى دهاليزهم؟ أبحث عن رجل أحبه؟ سيسخرون منها بالتأكيد ، فهم لا يعرفون معنى الحب ، ومعنى أن تندفع امرأة للبحث عن رجل متهمون هم بتغييبه ، سيقولون بأن هناك أمراً آخر هربت من أجله حين كسرت أمر منعها الخروج من المدينة ، إنها امرأة خطيرة ، لا تغرنكم ادعاءاتها وبراءة وجهها ، سنسلخ جلدها حتى تعترف .

قبعت في المكان واستسلمت للعتمة وللوقت الجاثم على صدرها ، لكن حواسها لم تستسلم ، بل تيقظت لكل نأمة أو

حتى دبيب ، وماتزال تسمع من حين لآخر صريراً خافتاً لا تشك هذه المرة بأنه صوت فأر ، تكورت على نفسها وتكوّمت في المكان عائمة في ظلام دامس ، تغمض عينيها لئلا ترى أشباحاً ، لكن صوت امها يختزل المسافات ليبث الطمأنينة في نفسها : لا توجد أشباح في الظلمة يا نرجس ، وما تلبث أن تفتحهما ، ليس بفعل الصوت الذي وصلها من العالم الآخر ، بل لأن الأمر سواء ، ليس لهذه الظلمة تدرجات في اللون أو خطوط تظهر في هذه الزاوية أو تلك ، إنها لون واحد قاتم مغرق في القتامة ومفتوح على تكهنات شتى ، الصمت ضاج وصاخب بأنفاسها اللاهثة ونبضها المتوتر ، والوقت غير خاضع لعقارب الساعة ، عقاربه هنا تلدغ وتنفث سمومها في الروح قبل البدن . . لا يمكنها الصراخ ولاترى أشباحاً ذات عيون مضيئة وأنوف طويلة وذيول من نار كما في طفولتها ، بل تخشى من أشباح الرجال الأحياء يظهرون لها من حيث دخلت ، أولئك الذين خلقوا من نسل الشياطين ، تحدّق في فراغات الظلام الذي لا فراغات له ، وتتخندق في صمتها وارتعاشها ، وتجاهد لكي تضغط على مخاوفها الى أقصى ما تستطيع ، كما لو أن تلك المخاوف شيء يُلمس فتدفعه بيديها ، وإن لم تستطع فعليها التأقلم معها .

يقولون دائماً إن الضوء في آخر النفق ، فأين الضوء ، ومتى يأتي ويبدد العتمة؟ وأين آخر النفق الآن؟ هل هو البقعة التي

تتكوّم فيها ، أم الجهة التي تنظر باتجاهها من حيث دخلت؟ لا ضوء يأتي ولا صوت مزكين ينقذها ، امتدّ الوقت ، أخذ وقته بالتمدد غير مكترث باضطراب امرأة تضيق أنفاسها كأن الهواء سينفد بعد دقائق ، وتتهيأ لخطر قد يداهمها في أية لحظة ، أحست بشيء ينسل من جهة اليمين ، لعله أفعى ، اضطربت وارتجفت وتشنجت وتحفزت ، ثم بدأت تشعر ببرد شديد ، كأن الصيف ولّى هو وتابعه الخريف ليقذفها الى زمهرير لا يحتمل .

فكرت بالخروج ، وحاولت أن تزحزح الصخرة المزعومة لتعرف ماذا وراءها ومن ينتظرها هناك؟ لكنها تراجعت في الوقت الذي لم تعد تسمع فيه حركة للأفعى المفترضة ، لعل الرعب قد بلغ أقصاه فتسلل كما الأفعى الى كل مفصل من مفاصل جسدها فتخيلته أفعى ، عليها أن تلتزم بنصائح مزكين وتبقى ساكنة في المكان ، على الرغم من أنها الآن غير متأكدة تماماً مما قالته لها بأن كل شيء آمن وكل شيء محسوب حسابُه .

ماذا لو بقي الظلام الى ما لا نهاية ، وأية مزالق بانتظارك يا نرجس؟

***

بعد زمن بدا دهراً وحمل لها شتى المخاوف ، جاءها صوت مزكين كأنه يأتي من السماء السابعة : اخرجي يا سيدة

نرجس ، كان ريقها ناشفاً ووجهها شاحباً ، ضغطت على زر البطارية وكادت تسقط على الأرض من شدة اضطرابها الذي ما يزال يلازمها ، لقد أخذت منها المخاوف كل طاقتها إلا القليل مما أعانها على النهوض ، خرجت الى النور وكادت تصرخ ، لكنها تماسكت ، دخلت الى المضافة كأنها تخرج من قبر ، وأنزلت مزكين الغابة بين القبر والمضافة .

- ماذا حدث يا سيدة مزكين ، ألم تخبريني بأن المكان آمن؟

قالت مزكين وهي تناولها طاسة ماء :

- لا يخلو الوادي من بنات آوى ، هذا مثل كردي عندنا ، لذلك نحن حذرين حتى وإن كنا ننعم بالسلام .

شربت نرجس نصف الماء وما تزال الطاسة بيدها المرتعشة حين قالت :

- أي سلام يا مزكين؟ كاد قلبي يتوقف ، قولي لي هل داهموا البيت؟

كانت مزكين قد أحضرت معها أدوات حياكة لتكمل فردة كيوة ، خيوط بيض قطنية وأخرى ملونة ، بأصابع ماهرة تعرف أين تغرز الإبرة وكيف تسحب الخيط ، قالت وهي منهمكة بالعمل :

- لا يا عزيزتي ، لكن يوجد بعض المتعاونين معهم من الأكراد أنفسهم ، لا يهمهم أمر أبناء جلدتهم ، الذي يهمهم هو

ما يقبضونه من النظام على عمالتهم ، والذي حدث قبل ساعة هو أن (ريبر) أحد أبناء عمومتنا وهو من هذا الصنف جاء زائراً ، آه لو تعلمين بهذا الريبر ، إنه مثل الحية في الجراب ، لا يؤتمن .

- هل يشك بكم؟

- ليس مستبعداً والحذر واجب ، إنه اسم على مسمى .

- ماذا يعني اسم ريبر؟

- مُرشد ودليل ، وطبعاً شتان ما بينه وبين مرشدي وأدلاّء الخير .

- لكنكم أبناء عمومة كما تقولين .

تتوقف أصابع مزكين عن العمل ، ترفع رأسها وتنظر الى نرجس لتقول :

- هذا ليس سبباً يجعله يستثنينا ، لو قُدّر له سيأكل العسل ويتركنا للنحل كما يقول المثل ، هو يعرف بأنه غير مرحب به لكنه ثقيل الظل وملحاح وفضولي ، قال له زوجي محمود لكي يجعله لا يطيل المكوث بأننا ذاهبون بعد قليل الى جلولاء لزيارة صديق مريض ونعود في وقت متأخر ، تصورى ماذا كان رده؟ قال اذهبا وأنا سوف أبقى في البيت ، فرد عليه محمود : السهرة في بيت فاتي ، وفاتي في بيت خاتي .

وسط ظلال الخوف وجَدت الابتسامة طريقها الى شفتي نرجس ، وسألت مزكين عن معنى هذا المثل :

تواصل مزكين عملها بيدين ماهرتين ، ومن دون أن ترفع رأسها توضح :

- معناه حينما يكون الضيف في البيت وصاحب البيت غائب .

ثم تتوقف عن العمل وترفع رأسها لتقول :

- والمصيبة أن ريبر لا يحلو له الجلوس إلا في هذه المضافة ، مع أننا لدينا غرفة ضيوف في الجزء الآخر من البيت .

- لكن ، ألا يمكن أن تُفهموه أن لديكم ضيفة؟

- أنتِ لا تفهمين يا عزيزتي بأن هناك أوامر بإخبار الجهات المسؤولة عن الضيوف الذين يمكثون لأكثر من أسبوع ، واستفسارات حول سبب زيارة الضيف ومن أين جاء وما هو عنوانه .

- لماذا تعرضون أنفسكم للمتاعب باستقبالنا يا سيدة مزكين؟

لم تقل لها نرجس ماذا تقبضون من مال جراء القيام بهذه المخاطرات ، لأنهم لم يساوموها حتى الآن على أي مبلغ .

- هذا أمر نابع من سريرتنا ، لقد رأينا الويل ، ومات أكثر أقاربنا بعمليات الأنفال ، لو تعرفين مصائب الآخرين لهانت مصيبتك ، تخيلي أن تعودي الى قريتك فلا تجدي أهلك ولا ناس القرية ، بل تشاهدي الجثث في كل مكان ، الأب والأم والإخوة والأخوات والأطفال والجيران وحتى الحيوانات

والطيور ، أجساد منتفخة مشوهة مرمية في الطرقات والمزارع والأسواق وداخل البيوت ، زوجي محمود فقد كل عائلته ، وأنا فقدت أبي وثلاثة من إخوتي وأختي وزوجها وأطفالها ، حملت مرتين وولدت بنتين مشوهتين بسبب الكيمياوي ، وشكرت الله أنهما ماتتا بعد الولادة بساعات ، لقد كانتا بشعتين بدرجة مخيفة ، لذلك استأصلت الرحم لكي لا تتكرر المأساة ، وحتى اليوم يعاني الناجون من أمراض سرطانية والنساء يلدن ولادات أغلبها مشوه ، أما ما نفعله من عمل الخير فهو شيء بسيط لعله يشفي الجراح ، لا يهم أن نعرف تفاصيل الضيف الهارب إلينا ما دام قد جاء من مصدر موثوق به ، اطمئني يا أختي ، نحن نعرف كيف نحمي المظلوم ، ولن يطول الأمر بك هنا ، ستصلين الى حل لمشكلتك إن شاء الله .

عندها سألتها نرجس :

- هل عرف زوجك متى يأتي كاكا طارق؟

فردّت مزكين بجواب لا يشفي غليل نرجس .

- ربما يأتي اليوم أو غداً أو بعد غد ، هذا أمر ليس بيدنا . . كل شيء بأوانه .

***

لم تعد تنظر الى الغابة الكثيفة العميقة ، حدسها منعها من التمعن في تفاصيلها لكي لا تعود الى ما وراءها ، يكفي أنها عاشت كابوساً رهيباً بعدما أدخلتها مخيلتها حين أمعنت

بتفاصيلها الى ذلك الكابوس ، ولم تعد تلح بالسؤال عما ينتظرها ، ستترك الأيام تجري كما تشاء ، وإذا ما سألت فإنها لا تنتظر إجابات ، مادامت قد اختارت طريق المجهول فهو سيتكشف لها بمرور الوقت وإلا لماذا أسميناه مجهولاً ، وإذا شاء سوء الحظ أن يجعله متكشفاً عما لا يرضيها فلتكن قانعة وتحترم قوانين ذلك المجهول الذي لا تعرفه ، لماذا تستعجل نهايته؟ قد يكون فيه موتها قبل أن تحقق غايتها ، وقد تتعرض الى أقسى أنواع العذاب فتتمنى لو أنها ما غادرت بغداد؟

انشغلت نرجس عن هذه الأفكار حين سقط نظرها على دعسوقة حمراء مرقطة بالأسود ، خيط الشمس النافذ من وراء زجاج الشباك يجعلها تلصف ، كانت الدعسوقة تمشي على الحائط قرب النافذة ، تتعثر وتسقط ، ثم لا تلبث أن تقوم ، وتمشي ، وتسقط ثانية وتقوم ، وهكذا . . شيء ما تحرك داخل نرجس جعلها تشعر بأنها هي الدعسوقة ، كان ذلك الشعور قد داهمها في السقطة الرابعة لهذه الحشرة ، وعندها سمعت صوت مزكين :

- قومي يا سيدة نرجس ، لقد وصل كاكا طارق .

شهقت وقامت ، كادت تتعثر وتسقط لولا أنها تمسكت بالحائط ، أخذتها مزكين الى القسم الثاني من البيت ، أخيراً وصل كاكا طارق بعد دهر .

ماذا سيكون بانتظارك يا نرجس؟

النهار في أوله ، تحت ظلال شجرة سنديان ضخمة يجلس الرجلان ، كاكا محمود وكاكا طارق ، وهو رجل في أواخر أربعينياته ، قوي البنية ثاقب النظرات ، يرتدي شروالاً بنياً بحزام قماشي عريض ومزركش ، سلمت نرجس عليهما فيما دخلت مزكين الى المطبخ لتعد الشاي ، قال كاكا محمود وهو يشير الى نرجس ملتفتاً الى كاكا طارق : هذه هي السيدة نرجس . . رحب كاكا طارق بها ، لا يحتاج لمعرفة طلبها ، لقد سبقتها المعرفة منذ اتفاقها مع محسن العلوان ، فقط طلب وثيقة تثبت اسمها بالكامل ، فهرعت إلى المضافة وجلبت من حقيبتها بطاقة الأحوال المدنية ، وبعد أن دققها بعين العارف بمثل هذه الأمور ، قال لها :

- سأوصلك الى شخص لديه المعلومات الكاملة عن المختفين في هذه المنطقة ، وطبعاً مقابل مبلغ ، و . . . . .

قاطعته نرجس بالقول :

- أعرف ، تتدلل كاكا طارق .

ابتسم كاكا طارق وقال وهو يتناول قدح الشاي من يد مزكين :

- أنا لا آخذ مالاً يا سيدة نرجس ، هذا جزء من واجبي الإنساني ، الدليل الآخر المكلف بقضيتك هو الذي سيأخذ المال .

كادت دموعها تطفر من عينيها . . دليل آخر؟ هذا يعني

جولة أخرى من العذاب ، لكنها لم تقل شيئاً ، تابعت ما يقوله كاكا طارق :

- ستدفعين له نصف المبلغ ، أما النصف الثاني فتدفعينه فقط عندما تجدين من تبحثين عنه .

ناولتها مزكين كيساً من النايلون فيه بعض الطعام ، و(كيوة) تساعدها في المشي وصعود المرتفعات ، وتمنت لها رحلة موفقة .

خلفنا وراءنا البيوت وسوق المدينة وبناية المستوصف الصحي ، حمل كاكا طارق عني كيس الطعام الذي أعدته مزكين ، وحملتُ سراب آمالي ، ثم عبرنا جسراً حجرياً عتيقاً يمر فوق نهر ضعيف المجرى ، قال السيد كاكا طارق : هذا نهر الوند الذي يشطر خانقين الى شطرين ، وهذا الجسر المسمى باسمه بني من الطابوق السلطاني في النصف الأول من القرن التاسع عشر في زمن العثمانيين ، همهمتُ إذ لم أجد ما أرد به عليه ، ماذا يعنيني الجسر ومن بناه ، أنا التي تقطعت بي الجسور؟

في نهاية الجسر كان ينتظرنا شاب في العشرينيات من عمره : هذا سيروان ابن أخي ، قال كاكا طارق ونحن نركب السيارة ، وقلت : أهلاً وسهلاً . . قاد سيروان السيارة لأكثر من ساعة ، وعند نقطة محددة ، قرب دكانة صغيرة تحمل عنوان دكانة حمه هوشيار ، توقفت السيارة ، نزلنا وقال له كاكا طارق : موعدنا يتحدد بالتلفون من عند حمه هوشيار .

استأذن كاكا طارق وذهب الى الدكانة ليشتري السجائر ويقوم بمكالمة الدليل الجديد ، ثم عاد ، وأخذنا الطريق مشياً لأكثر من نصف ساعة باتجاه آخر موازٍ للطريق الذي جئنا منه ،

وكانت التلال ترتفع كلما توغلنا ، حتى وصلنا أرضاً وعرة وغارقة بصمتها ، واتخذنا درباً يضيق مرة ويتسع مرة ، بدا لي غير مطروق إلا لمثل هذه المهمات ، ويقع بين سلسلتين جبليتين ، ربما كانتا جبلاً واحداً فشطره زلزال ذات يوم في زمن غابر ، لم يسألني كاكا طارق أي سؤال بشأن تفاصيل قضيتي ، كان الصمت رفيقنا في معظم الوقت ، ولم أسمع منه سوى بعض الجمل عن الطريق ، من هنا ، خذي حذرك هذه صخور ناتئة ، لا تخافي إذا سمعتِ أصوات الذئاب ، هل أنتِ متعبة؟ يمكنك الاستراحة هنا . . وكنتُ أرد بكلمات مقتضبة ، وبشفاه يابسة .

انحدرنا الى وادٍ عميق ، تكاثفت فيه أشجار السرو المخروطية والصنوبر ذات الأوراق الإبرية والجذوع الرمادية المتشققة ، بينما شقائق النعمان تطرز جسد السهول والجبال بلونها الأحمر القاني ، قال كاكا طارق كلاماً لم يعلق منه سوى عبارة خرجنا من حدود خانقين ، ولم أسأله أين نحن بالضبط ، بعدها لم أعد أسمع إلا صوت الهواء المدوّم وأنفاسي وأصوات العصافير وخطواتنا على الصخور الناتئة ، كدت أتدحرج حين سمعت عواء ذئب عن بعد ، لولا أنني تشبثت بجذع شجرة ، وقال كاكا طارق ملتفتاً نحوي وهو يرى خوفي : إنه ذئب ألم أقل لكِ بأن الذئاب تكثر في هذه المنطقة ، ذئب يا سيدة نرجس وهو أرحم من البشر ، قال ذئب كأنه يقول أرنب ، وكان

يمشي أمامي بخطوات مُدرّبة على مثل هذه الطرق ، وبطيئة لكي يجعلني ألحق به ، تذكرت عبارة(يوسف لم يأكله الذئب) وشتان ما بين الذئبين ، لم يستمر العواء ، حينما انعطف بنا الدربُ نحو اليسار وما يزال ضيقاً ومحاطاً بالجبال والأشجار والخضرة الداكنة ، تناهى الى سمعي هذه المرة خرير مياه ، وبعد قليل ، بين كثافة الأشجار ثم انفتاحها ، شاهدت على يسار الطريق انسكاب المياه من أعلى الجبل الى عمق الوادي ، وشعرت بالعطش فاستأذنته ، اقتربت من مسقط المياه لأشرب وأغسل وجهي ، وضعتُ أقدامي على حذر فالصخور التي تملؤها الطحالب والأشنات زلقة ، كم أود أن أدخل الى قلب هذا الشلال وأغتسل تحت جريانه الرباني لعله يغسل أحزاني . . وبينما كنت أغسل وجهي سمعت كاكا طارق يقول :

- يمكنك الاستراحة بعض الوقت فأمامنا طريق وعر ، هل أنتِ جائعة؟

ابتعد عدة أمتار بعد أن أخذ سندويجة من كيس الطعام وصب الشاي في كوب من الورق المقوى ، وترك الباقي أمامي ، جلس على صخرة كبيرة وراح يقضم السندويج ويشرب الشاي ، نظرت الى السماء الصافية وقمم الجبال المتوهجة بضوء الشمس ، وشاهدت عصافير ملونة تتنقل بين الأشجار وأخرى تحط على الحجارة الغاطس نصفها في الماء لترتوي . . ترى أية

روعة كنت سأحسها لو أنني جئت الى هذا المكان في ظرف غير هذا؟

تناولت نصف سندويجة الجبن ، وشربت الشاي الأسود ، كان كاكا طارق في هذه اللحظات يدخن سيجارة ، قلت له وأنا أنظر الى جمال الطبيعة ومخلوقات الله المتناغمة معها والمتجانسة مع بعضها :

- أنتم هنا تعيشون في جنة .

فعقب بالقول :

- نعم إنها جنة ، ولكنها محاطة بالجحيم .

وخطر لي أن أسأله عن أم هاني فقلت :

- أين وصلت قضية أم هاني؟

قال بعد أن سحب نفساً من سيجارته :

- هي الآن بحماية أحد شيوخنا ، وهو الذي سيتكفل بما ستؤول اليه قضيتها بعد أن عرفت أن كوران دلشاد بختيار قد قتل في العام الماضي مع عدد من الذين كانوا معه في واحدة من مطاردات الجهات الأمنية .

- ماذا تظن ياكاكا طارق ، هل ستجد ابنها؟

- لا يمكن الجزم بذلك ، لكنني أرجح أن ابنها قد قتل أيضاً في المواجهة نفسها .

وساد بيننا صمت قصير ، ثم حين انتهى من سيجارته ورمى عقبها وقف وقال :

- هيا ، لنواصل .

وبدأنا الصعود يميناً من حضن الوادي ، علينا أن نصعد جبلاً بارتفاع متوسط ، كان كاكا طارق يغذ السير نحو الجبل وأنا أتأرجح على حذر ، لم أتعود على صعود الجبال أو حتى التلال من قبل ، كانت أقدامي دائماً تمشي على أرض مستوية ، وها أنا أتشبث بالصخور حادة النهايات ، بأصابع شرسة تريد أن تقبض على كل شيء ، ألهث وأشحن روحي بالأمل البعيد . . أيتها المعجزات أين تختبئين؟

حين انتهينا من صعود الجبل وهبطنا من جزئه الثاني بدت الأرض تنفتح ، أرض رحبة ، متموجة حباها الله بجمال خرافي بتدرجات ألوانها وسفوحها المتموجة وجبالها المتعاشقة بالخضرة وألوان الورود البرية التي تزركشها ، كانت ثمة سيارة تنتظرنا ورجل يقف بالقرب منها ، رفع كاكا طارق يده عن بعد محيياً من دون كلام ، تحرك الرجل باتجاهنا حين رآنا ، مدّ الرجلان أيديهما للمصافحة ، بعد ذلك قال كاكا طارق للرجل :

- أوصيك بالأخت نرجس .

فأشار الرجل بإبهامه الى عينيه بمعنى الاستجابة لطلبه ، ولم يتكلم ، نظرت إليه ، يبدو في منتصف الثلاثينيات من عمره ، قامته متوسطة الطول ، وجهه حنطي مجدور ، وعلى حاجبه الأيمن أثر جرح قديم ، قام كاكا طارق بفتح باب السيارة

ودعاني للركوب في المقعد الخلفي فركبت ، وانتظرته يصعد الى جانب الرجل ، لكنه التفت نحوي وقال :

- السيد رشدي هو دليلك الآن ، إن بإمكانه الوصول الى ما يصعب الوصول إليه ، هو الذي سيأخذك الى هناك ، وهو الذي سيعيدك حيث أكون بانتظارك .

بانت على رشدي ملامح الزهو ، ولم أسأل أين الهناك ، فكل ما مررت به بالنسبة لي هو هناك ، لاشك أن رشدي هذا مثل محسن العلوان ، يعمل مقابل المال ، وكالعادة مع الأدلاّء لم أتحدث إلا عند الضرورة ، وقبل أن تتحرك السيارة باتجاه الطرق الوعرة ، أعطيته نصف المبلغ المتفق عليه مع كاكا طارق ، بعدها ناولني خرقة سوداء طالباً مني بلغة عربية خالصة أن أعصب عيني ففعلت ، لم أعد أرى شيئاً ، لكنني سمعته يقول :

- هذه هي شروط اللعبة .

تساءلت بيني وبين نفسي : هل صارت أحزان الناس لعبة بيد هؤلاء الرجال الذين يتاجرون وقت الكوارث؟ نعم يتاجرون ، ماداموا يأخذون المال فهم تجار ، تجار من نوع خاص ، والبضاعة معروفة ، لكنها لم تسجّل بقوانين ، المال مقابل معرفة مصائر المختفين أو المختطفين ، إن كانوا أحياءاً أو أمواتاً ، والتسعيرة بحسب نوع المصيبة وتعقيداتها .

حركة السيارة غير متوازنة ، لابد أنها تمشي في طرق وعرة

لزوم المهمة التي يقوم بها الأدلاء الذين يبتعدون عن الطرق المعروفة ، لكنني من حين لآخر وبحذر شديد أزحزح العصابة وأنظر الى الطريق خلسة كأنني أريد إدراجه في الذاكرة ، وبعد وقت قد يكون نصف ساعة ، قال رشدي .

- ارفعي العصابة عن عينيك وانزلي .

رفعتها ونزلت بإحساس من بقيت وسط العتمة دهراً .

ركن رشدي سيارته بين شجرتين وارفتي الظلال ، وواصلنا مشياً لما يقارب الربع ساعة ، ثم صعدنا مرتفعاً فبانت عن بعد بناية غير واضحة المعالم ، وصلناها من سياجها الخلفي بعد خمس دقائق ، ثم درنا فصارت بمواجهتنا . . بناية من طابق واحد ، مغطاة بشبكة بلون التراب ، تبدو عن بعد مثل تلال واطئة الارتفاع . . يحرسها عدد من العساكر ، لا أدري إن كانت سجناً أو دائرة أمنية ، لكنها على أية حال تثير الفزع ، يبدو ذلك من موقعها المنعزل ومن حراسها المتحفزين ومن واجهتها الصخرية التي لا تحمل أي تعريف ، ومن أشياء يصعب التكهن بها . . . ماذا وراءك أيتها البوابة؟

قال رشدي :

- اجلسي في هذه الزاوية ريثما أعود .

زاوية مهملة ، في بعض جوانبها علب فارغة وأكياس نايلون وأعقاب سجائر وصفائح مخرومة ، جلستُ على صخرة ، لا شك أن غيري جلس عليها من قبل بانتظارات مُرة ، الوقت

ثقيل ورأسي فارغ من كل شيء ، ربما أفرغته مما مضى لأملأه بما سيأتي ، ما الذي سيأتي؟ السكون وحده يعبث بالمكان الغريب ، تقطعه أصوات طيور كبيرة الحجم تحلق بارتفاعات واطئة ثم تمضي محلقة الى الأعالي ، وأصوات خطوات العساكر في المسافة القصيرة بين البوابة والممر الذي اختفى فيه رشدي ، أنتظر أي نتيجة بشأن يوسف ، حتى لو كان في عداد الموتى ، لا شيء أقسى من قضاء ما تبقى من عمرك وأنت تتساءل عن مصير إنسان عزيز فقدته ، فيما إذا كان بين الأحياء أو أن الموت غيّبه بطريقة ما ، في الحالة الثانية سينفجر بركان الحزن مرة واحدة ويغطيك ، ثم يصغر شيئاً فشيئاً ، ولا يبقى غير الذكريات التي ستبهت بمرور الزمن ، أما حالة التأرجح بين الشك واليقين فهي وحدها القادرة على استباحتك والتلاعب بحياتك وغرس شجرة الأحزان في أعماقك لتثمر أحزاناً في المواسم جميعها .

جفلت ، لم أسمع خطوات تسبق صوت رشدي وهو يقول :

- أمامنا بعض الوقت حتى نعرف النتيجة .

جلس على صخرة ، أشعل سيجارة وراح يدخن ، ولم يتحدث إليّ حتى نهايتها عندما نهض وقال :

- سأعود بعد قليل :

ومشى صوب رجل طويل نحيف كان قد خرج من الممر يحمل أوراقاً . . وقفا متقابلين على مسافة لا يمكنني من

خلالها سماع ما يتحدثان به ، تابعت عيناي حركة شفاههما وأيديهما والأوراق التي راح الرجل الطويل يتصفحها على مهل ، ثم تحركا واختفيا في الممر ، فيما تلاعبت الهواجس بي وهي ترفعني وتسقطني في جب من القلق والحيرة ، تعصرني حتى تكاد أنفاسي تتوقف ، وأصرخ في أعماقي : يا الله متى تحدث المعجزة؟

وبين القلق والحيرة لاح لي وجه يوسف ، جاء بزمن آخر غير الذي أنا فيه الآن ، رأيتني وإياه جالسين على مصطبة تحت ظلال شجرة يوكالبتوز في متنزه الزوراء ، هي آخر مرة ندخل فيها الزوراء بعد الذي حدث مع أحد الشرطة ، لم نكن نفعل شيئاً يخرج عن (الذوق العام وتقاليد المجتمع) كما قال الشرطي الذي وقف أمامنا محتقن الوجه ، رفع سبابته بوجه يوسف صارخاً :

- ماذا تفعلان؟

التزمتُ الصمت ، وتولى يوسف معالجة الأمر :

- لم نفعل شيئاً كما ترى ، ماذا تريد منا؟

- اختلاؤكما بهذه الطريقة ليس له سوى أن ثالثكما الشيطان .

- عن أي شيطان تتحدث أيها الرجل؟

- أنا رجل شرطة وأمن في الوقت نفسه ، وعندما تتحدث معي تذكّر أنك تتحدث مع سلطة البلد .

- هل رأيت شيئاً يخدّش حياء البلد؟

- لو لم أكن أمامكما الآن لحدث بينكما المنكر .

احتدّ يوسف :

- المنكر هو ما تقوله ، وعليك أن تعرف بأننا مخطوبان يا سلطة البلد .

- هل تسخر مني يا ولد ، اعطني هويتك .

غادرتُ صمتي وقلت ، للشرطي :

- نحن نعتذر يا سيد ، سلطتك على العين والرأس ، سامحنا هذه المرة ولن ترانا بعد ذلك .

تراجع الشرطي وقال موجهاً كلامه الى يوسف :

- أقبل الاعتذار ، والآن اخرجا قبل أن أغير رأيي وأحجزكما بالصلاحية المخولة لي .

غضب يوسف مني عندما خرجنا من المتنزه ، قال بأنني أسمح لهؤلاء بإذلالنا ، حاولت تبرير موقفي لكنه كز على أسنانه ، وقال :

- إنه مجرد شرطي ، ولاشك بأنه محروم من الحب فيرمي عقده علينا وما كان ينبغي لكِ أن تعتذري .

حاولت تهدئته ، مذكرةً إياه بحكاية ذلك الرجل الذي جرجره شرطي وهربت صاحبته خوفاً من الفضيحة :

- نعم أتذكّره؟ حجزوه شهراً ، ليس لأنه كان جالساً مع امرأة تحت ظلال الأشجار ، بل لأنه كان مراقباً كونه شيوعياً ،

ولـم يشفع له فك ارتباطه رسمياً بالحزب .

فـجـأة تغـيـر المشـهـد ورأيت يوسف ثائراً يكاد الغـضب يشظيه :

- لماذا تزوجتِ يانرجس ، ألم يكن بوسعكِ الانتظار؟

- يوسف هدّىء من غضبك واسمعني .

- لا أريد سماع كلمة واحدة ، الخيانة تجري في دمائكن وقلوبكن قدّت من حجر ، أمك حواء فعلتها قبل ذلك فأنزلتنا من الجنة ، وها نحن في الجحيم الى أبد الآبدين .

- لم يكن في زمن أمنا حواء رجال لتخون أبانا آدم معهم ، كل ما في الأمر أنهما أكلا التفاحة معاً ، لكن دعنا من هذا الآن ، وانظر إليّ ، أنا نرجس ، حبيبتك ، جئت قاطعة الجبال والوديان وتركت كل شيء من أجلك ، وقلبي ليس من حجر بل أنعم من شقائق النعمان ، تذكّر مباهجنا الصغيرة التي كانت أكبر من الكون ، واعطني فرصة لأحكي لك ما حدث .

لكن الفرصة لم تأتِ حتى وأنا على هامش الحلم ، قطعها صوت طائر جارح فغاب وجه يوسف وأعادني غيابه الى جلستي ، أترقب بداية الممر وخطوات العساكر ، وأتساءل ماذا يحدث فعلاً لو رأيته ، وكيف سأراه؟ وهل سيشفع بحثي عنه بتجاهله زواجي؟

خرج رشدي من الممر وجاء مسرعاً نحوي ، من الواضح أنه يحمل لي خبراً ، ما إن اقترب مني حتى قال :

- اسمه ليس في القوائم ، لكن هناك مجموعة رجال من دون أسماء .

- من دون أسماء؟ كيف يعرفونهم إذن؟

- لا يحتاجون الى معرفة الأسماء ، ربما يرقمونهم أو يخلعون عليهم أسماء حشرات .

- أرقام وحشرات؟

- اتبعيني ولا تسألي ، لقد سمحوا لي باصطحابك ، على قدر ما تستطيعين دفعه من مال تسهل مهمتك .

لم يكن رشدي متوجساً أو حذراً في تعاملاته ، بدا كمن قام بهذه المهمة مرات لا عدّ لها . .عند بداية الممر سلمني الى رجل ضخم ، داكن البشرة خشن التقاسيم متجهّم ذي نظرات حادة وشرسة كأنها نظرات صقر ، وقال رشدي بأنه سينتظرني .

قبل أن يأخذني هذا الرجل الى الدهاليز المعتمة جعلني أوقع على ورقة تأمرني سطورها بالصمت ونسيان ما سوف أراه حين أخرج من هذا المكان وإلا سيكون مصيري الإعدام كما هو مدوّن في الورقة التي ذكرتني بورقة ضابط الأمن عندما استجوبني في بغداد بعد اختفاء يوسف ، كانت نبرات صوته آمرة وحاسمة وفظة حين طلب مني قراءتها والتوقيع عليها ، ودفعتُ له ما أمر به ، دسّ النقود في جيبه ونظر إليّ بملامح فيها من الازدراء قدر ما فيها من الجلافة ، بعدها أخذني الى أعماق

ممر طويل مرصوف ببلاط رمادي .

كلما قطعنا مسافة أصبح الضوء خافتاً ، الممر يفضي الى ممر أقصر ، وممر متوسط الطول ، ثم انعطفنا الى ممر ملتوٍ ، كأن الممرات لا تنتهي ، وشعرت كما لو أن الأرض تهبط بنا ، ثم وصلنا الى سلالم حديدية نازلة ، والضوء يكاد يتلاشى ، يتقدمني الرجل الضخم ، بيده بطارية ، يفتحها في ظلام الدهاليز الرطبة والهواء المضغوط ، تفوح في الممرات روائح كريهة كأنني في أشد المراحيض قذارة ، وصوت يشبه صوت أمي ، يصرخ بي : إلى أية متاهة تمضين يا نرجس؟

سمعت ما يشبه الأنين المتواصل ، توقف مع اقترابنا من باب حديدي ، ضغط الرجل الضخم على زر فانفتح ، ثم نزلنا أربع أو خمس درجات حجرية الى سرداب ، تتقدمه قضبان ، وبمسافة مترين تقريباً انتصبت قضبان أخرى ، تقدم الرجل الضخم ثلاث أو أربع خطوات وفتح باب القضبان الأول الذي أحدث فتحه صريراً صاخباً ، ولم يفتح الباب الثاني ، ثم قال : دقيقة واحدة فقط ، الكلام ممنوع معهم ، وأطفأ البطارية .

ثمة ضوء شحيح لا يكاد يكشف المكان لا أدري من أين يأتي ، لكنه يكفي لرؤية أشباح لا تشبه تلك الأشباح التي كانت تظهر لي في طفولتي ، بل أشباح لهياكل رجال أو أشباه رجال ملتصقين بالأرض ، وما إن سمعوا صوت الباب يُفتح أو ربما حين رأوني ، حتى بدأت بعض الأجسام تتحرك وتزحف

على البلاط العاري الذي ليس بلاطاً وليس له لون ، بشعور ولحى طويلة ، كأنهم من القرون الوسطى ، وكأنهم أيضاً نسخة مكررة لرجل واحد ، رجل يحمل ملامح يوسف أو ما كان ليوسف من ملامح ، أو . . . هكذا خيّل لي للوهلة الأولى ، لابد أن النظر يخدعني ، أفتح عينيّ وأحدق بهم ، بيني وبينهم قضبان عازلة . . . كم عددهم؟ عشرة؟ خمسة عشر؟ أكثر من ذلك؟ لا يمكن تحديد العدد بمشاعر مضطربة ورؤية مشوشة ، إنهم يتقلصون ويتناسلون وتتحرك شفاههم من غير صوت كأنْ لا ألسنة لهم ، وبعيون فارغة كأنها حُفر لقبور مُعدّة على عجل ، ويسعلون ليس كما البشر بل بنبرات مضغوطة كأنها أنفاس خارجة من قبر ، ينظرون إليّ نظرة أسى ، نظرة من لا يصدق أن الحياة ما تزال مستمرة على سطح الأرض ، أو أن التي تقابلهم كائن حط عليهم من كوكب آخر ، انعدم زمنهم وراء القضبان ، وربما نسوا أنهم بشر ، إنهم الآن أقرب للحيوانات في شكلهم وأبعد عن الحيوانات في ذواتهم المنسحقة المهانة . . يا ألله ، كيف يتحول الإنسان الضاحك الطموح الحالم الى هذا الضعف المهين؟

قلت بصوت خرج من أعماق روحي الملتاعة : يوسف حبيبي أين أنت؟ فزحف باتجاهي ثلاثة رجال ، بالملامح ذاتها ، ربما كانوا واحداً فشظّاه وجع قلبي ، وهنا زجرني الرجل الضخم : قلت لكِ لا تتكلمي معهم ، فقط شخّصي من

تبحثين عنه ، وإلا أنهيت الزيارة ، لكنني توسلته وطلبت منه أن يفتح بطاريته عليهم ، رفض وكاد يسحبني بقوة ، تشبثت بالقضبان ، غارقة بالدموع ، ففتح البطارية على وجوه الرجال الذين تحركوا نحوي ، ووجدتني أنزل الى الأرض وأركع على ركبتيّ لأكون بمواجهتهم ، أتمسّك بآخر الخيوط من وعيي لئلا أفقد صوابي ، وأنظر الى عيونهم المطفأة ووجوههم المشوهة وأجسامهم المفرغة من إنسانيتها ، ليس بسبب الحروب ، بل بفعل أصابع تعرف كيف تصنع الحروب وتديمها ، أجساد ميتة برغم الأنفاس التي تخرج واهنة ومشروخة من أعماقهم ، تكاثروا أمام عيني ، شعرت بدوار وبضيق التنفس ، أين الهواء تكاد أنفاسي تتوقف ، لعلّي في الجحيم ولستُ أدري ، وأنا أقاوم وأفتح عينيّ وأحدق ، ويخرج سؤالي باكياً : من منكم يوسف حسن عمران؟ لم يرد واحد منهم ، كانوا كما العميان يحركون رؤوسهم الى الأعلى ليتبينوا الصوت ، وقال الرجل الضخم : هذا يكفي ، لو كان من تبحثين عنه موجوداً لرد عليكِ ، كنت في هذه اللحظة وأنا أغرز عيني بكل تفاصيل وجوههم قد تأكدت بأن يوسف ليس بينهم ، فأنا أعرف يوسف حتى لو شوهوا وجهه الجميل .

خرجت من السرداب ، الرجل الضخم هذه المرة من ورائي كأنه يخشى أن أعود إليهم ، الى الذين بلا أسماء وبلا حياة ، كانت روحي تتمزق حدّ الصراخ الذي لا يسمعه أحد غيري ،

وحدّ القول : أين الله مما يحدث؟

مشيت في الممرات ممزقة الروح ، عيناي أصابهما الغواش كأنني أخرج من عتمة قبر ، وخطواتي تتعثر كأنني أمشي على شوك ينغرز في قدميّ ، سمعت الرجل الضخم يقول : مع السلامة ، وسمعت قلبي يصرخ : أين السلامة؟ ثم استدرك وصاح بي : لا تنسي أنكِ وقّعتِ على إقرار .

كان رشدي بانتظاري ، تعثرت وكدت أسقط غير أنني تداركت نفسي ، سألني : هل كان بينهم؟ قلت بصوت مجروح : كلا ، وعدنا مشياً حتى السيارة ، لا أدري كيف صعدت واتخذت مكاني ، وجوههم تتبعني ، وأناتهم تجرحني وتغلق عينيّ عن الطبيعة النضرة التي خلقها الله ، والتي لا تناسب ما يحدث بين ثناياها من تشويه ، أشعر أن أعماقي تنهار ، أشياء ترتطم بأشياء ، أسمع صرخات مكتومة قادمة من تحت الأرض ، ربما من أعالي السماء ، لابد أن الله يعرف ما يحدث في هذه البقعة الحالكة من مملكته ، إذن لماذا تجاهلهم؟ إنهم قبل كل شيء رعاياه ، فكيف يترك الراعي رعيته الى هذا المصير؟ ثم أستغفر الله . . وأقاوم ضعفي لكي لا أنهار تماماً متوسلة بالصبر ، أما الأمل فقد تلاشى وانطفأ سراجه في هذه اللحظات العصيبة .

عادت العصابة على عيني ، وغرقت من جديد بدوامة الهياكل الشبحية التي انحفر مشهدها في رأسي مثل رؤوس

المسـامـيـر ، أراها تزحف وتئن ، أعـمـاقي أيضـاً كـانت تئن ، وبصعوبة بالغة انتشلت نفسي وشعرت أن الطريق الذي تسير عليه السـيـارة يبدو أكـثـر وعورة من الطريق الذي جئنا منه ، فزحزحت العصابة ، تطلعت الى الطريق ، وانتبهت بأنه فعلاً طريق آخر ، وتناهشتني المخاوف ، ماذا لو أن رشدي هذا أنزلني من السـيـارة وافترسني في هذه الأماكن الخالية من البشر ، وتحت مرأى الله أيضاً ، ثم طلب مني كتمان فعلته طالما أنا في ورطة مع القانون؟ أعدتُ العصابة على عينيّ وقلت بصوت نزعت عنه بصعوبة بالغة كل ارتعاشة خوف :

- اعذرني يا أخي ، العصابة تؤلم عيني .

فقال دون أن ينظر إليّ :

- انزعيها فقد تخطينا الطرق غير المسموح بها .

وتظاهرت بأنني أنزعها للمرة الأولى فقلت بعد لحظات :

- هل هذا هو نفسه الطريق الذي جئنا منه؟

لم يكذب عليّ بل قال :

- لا ، ليس هو .

- إذن الى أين نحن ذاهبان؟

- المهمة لم تنته بعد ، سنصل مكاناً آخر ، فالسياسيون المعارضون إما في البناية التي خلفناها وراءنا وإما في مستشفى الأمراض العقلية .

مرت قشعريرة على جسدي كأنها تيار كهربائي وقلت :

- ما جئت أبحث عن مجنون يا سيد رشدي .

قال ببرود :

- كل نزلائه من أصحاب الرأي المخالف ، وأنتِ تعرفين ما يحل بهم .

- لا لم أعرف .

- يفقدونهم العقل .

- لماذا إذن يحتفظون بهم ، ما قيمة الإنسان بلا عقل؟

فردّ عليّ من دون مراعاة لمشاعري :

- يستخدمونهم كحقل تجارب ، فئران يعني .

يا ألله ، كيف يتحول الإنسان الى فأر؟ إذا رأيت زواحف بشرية في تلك البناية ، فهل عليّ أن أرى فئراناً بشرية هذه المرة؟ ما صنف هذا الرجل ، وما هي مهماته الأخرى؟ ولماذا يفشي أسراراً خطيرة كهذه؟ قلتُ للصبر أستجدي مساعدته أيها الصبر ساعدني ريثما أستوعب ما رأيت وما سمعت ، وقلتُ لرشدي :

- لا أدري إن كنت سأحتمل ما سأراه أم لا .

قال كأنه يسخر مني :

- النساء قلوبهن ضعيفة ، وعلى أي حال أنا الذي سأدخل ، ليس لأنك لا قدرة لكِ على التحمّل ، بل لأن التعليمات هنا قاسية لا تسمح للغرباء بالدخول .

إذن فأنت قريب منهم ، يعني من الشلّة؟ قلتُ ذلك في

أعماقي ولم تخرج الكلمات من وراء لساني ، بل زفرت ، كأنني لم أزفر من قبل ، وهيأت نفسي لمحنة جديدة ، متمنية أن لا يكون يوسف من بين الفئران .

مازلت في دوامة الأشباح البشرية حين مضينا الى المستشفى ، ظلوا يتحركون نحوي ويتأوهون طيلة الوقت الذي استغرقه رشدي ، ربما بقي ربع ساعة أو أكثر ، ما عدت أعرف الوقت بدقائقه أو ساعاته ، فلقد تخليت عن الساعة اليدوية منذ توقفت دون سابق إنذار ، وقت ممدود الى تخوم الأحزان الشاسعة في قلبي .

تابعته عيناي وهو يمشي الى بوابة المستشفى ، بينما كان ظله يتبعه ، وفي لحظة غواش ما عدت أفرق بين رشدي وظله ، لقد بلغ بي الإرهاق حداً ما عدت أتحمله ، لكنني أقاومه بالصبر ، مستذكرة أحزان أم هاني .

لا يمكن أن تكون هذه البناية مستشفى وإن أشارت واجهتها إلى ذلك ، لابد أن ذلك للتمويه مادام المحتجزون فيها من أصحاب الرأي المعارض ، البناية مثل سابقتها تقع في مكان منعزل عن البيوت والأبنية الحكومية ، محاطة بصدّات كونكريتية وأسلاك شائكة ومقفلة بباب حديدي لا يختلف عن أبواب السجون ، أما ما وراءها فالله وحده يعلم ، لا أحد يخرج منها أو يدخل إليها ، دليلي وحده وقف عند الباب ، وقف لدقائق حتى جاءه رجل وفتح له البوابة دون إبطاء ، من

الواضح أنهم رأوه بجهاز خاص ، وأنه معروف لديهم ، وجوه الرجال المشوهين تجتاحني مرة أخرى ، وأجسادهم الزاحفة تحاصرني ، بعريها وذلّها وانتهاك رجولتها وانتزاع إنسانيتها ، أحس بحرقة في معدتي وبمرارة على لساني ، وعيناي ما تزالان منشتلتين على البوابة . . . ماذا وراءك أيها الجنون؟

وبينما يدخل رشدي البناية ويختفي ، أروح أنا الى كابوس جديد ، لأرى يوسف من خلاله مجهد العينين ، موثوق اليدين والقدمين ، على فمه شريط لاصق ، ومن حوله رجال قساة يجرونه على نقالة ويدخلونه غرفة ، ثم يحملونه من النقالة ويضعونه على سرير يتوسط الغرفة ، تسلّط عليه أضواء كاشفة وينشغلون بتمرير حزمة من الأنابيب في مواضع متعددة من جسده ، يحمل أحدهم سرنجة كبيرة مثل تلك التي تستخدم للحيوانات ، فيها سائل أصفر ، يزرقه في عضلة يده وبعد ثوان يروح في سبات عميق ، ثم ينتبه كبيرهم الى وجودي عند الباب فيأتي نحوي غاضباً ويغلق الباب بعنف فلم أعد أرى شيئاً ، وبينما أنا أنتظر والوقت يخرج عن منطقه يتغير المشهد فجأة ويعود بي الى الواقع ، فتنفتح البوابة ويأتي رشدي مسرعاً ، يصعد السيارة ، ويرمي بوجهي جملة واحدة ثم يصمت بعدها طويلاً :

- الاسم الكامل ليوسف الوحيد في هذا المستشفى هو يوسف قاسم ضامن ، وليس يوسف حسن عمران .

هل عليّ أن أشكر الله أن حبيبي يوسف ليس هيكلاً شبحياً ولا فأراً من ضمن الفئران؟

تحركت السيارة وعادت في الطريق ذاته ، لم يعد اللون الأخضر يلون الشجر ، صار رمادياً كالحاً ، ولم يحدثني الدليل سوى دقائق قليلة متقطعة ، لكن سؤالاً طفر من بين شفتي :

- كيف يستخدمون الإنسان كحقل تجارب؟

ردّ بالبرود نفسه :

- يجرون عليهم تجارب من أجل معرفة نتائج الاختبارات البيولوجية والأسلحة الجرثومية والأعراض الناجمة عن التعرض للأسلحة الكيمياوية ، وكذلك الأمراض المعدية ، ألم تسمعي بذلك؟

تحركت شفتاي ، أردت أن أقول شيئاً غير أنني لم أجد ما أقول ، التزمت الصمت وهو من جانبه صمت ، وتساءلت ما نوع هذا الرجل؟ فقد حرتُ في تصنيفه ، هل هو منهم أم عليهم؟ إذا كان منهم فكيف يفشي أسرارهم؟ وإذا كان عليهم لماذا يتعامل معهم؟ أم تراه يلعب على الحبلين كما يقال ، وكل ما يهمه هو المال وهناك من يتعاون معه من أجل المال أيضاً؟

***

كان الوقت بداية العصر حينما توقفت السيارة ، رأيت كاكا طارق يجلس تحت ظلال شجرة صنوبر ويدخن ، كأنه كان مشتولاً في المكان منذ غادرناه وما إن لمح السيارة حتى أخذ

وضع الاستعداد لاستقبالي ، نزل الدليل وفتح لي الباب ، حملت جسدي ونزلت :

- بشري أختي نرجس؟

قال كاكا طارق فرد عليه رشدي بدلاً عني :

- لم نجده ، لا في الحجز ولا في مستشفى الأمراض العقلية .

نقّلت عينيّ بينهما وسألت :

- هل انتهت المهمة؟

نظر كاكا طارق الى رشدي نظرة من يريد الجواب ، فالتفت رشدي نحوي وقال :

- ربما جئتِ متأخرة ، فعادة يُنقل المتهمون من مكان لآخر من دون إدراج أسمائهم في قوائم ، ما الذي جعلك تنتظرين كل هذا الوقت لكي تبحثي عنه الآن؟

قلت بصوت مشروخ :

- كنت أعتقد بأنه ميت ، لكن المعلومة كونه حياً هي التي جاءت متأخرة .

قال :

- هناك فرصة أخيرة لمعرفة مصير المحتجز ، لكنها تحتاج الى وقت .

نظرت الى عينيه لأبحث فيهما عما وراء جملته التي قالها وسكت ، فلعله أراد أن يكملها بعبارة وتحتاج أيضاً الى مال . .

قال بعد سكوت لم يطل :

- أحد الذين أتعامل معهم أخبرني بأنه من حين لآخر يحملون جثثاً ويدفنونها سراً في مكان مجهول .

سأله كاكا طارق :

- وكيف نعرف أسماء الذين دفنوا أو أماكنهم؟

قال رشدي :

- يمكن معرفة الأسماء لكن الصعوبة تكمن في معرفة المكان الذي دفنوا فيه .

سأله كاكا طارق ثانية :

- ومتى سنعرف الأسماء؟

أجاب :

- حينما تصلني من المصدر؟

- وإذا لم يكن من بين المدفونين؟

- إذن نقلوه الى مكان آخر بسرية تامة .

كان علينا أن نعود من حيث جئنا ، وهكذا صعدنا الجبل من جديد ، أنا وكاكا طارق الذي يحاول أن يغذي فيّ أملاً خادعاً بالقول :

- لم نستنفد كل الوسائل بعد ، لنا مجموعات تعمل في السليمانية ودهوك وأربيل وكركوك .

لم أطلب إيضاحاً عن الوسائل التي لم تستنفد بعد ، هنا أو في مدينة أخرى ، فقد نفدت ذخيرتي من القوة حتى لمواصلة الكلام ، لا أظن بأنني سأتعافى ، أحس بأن شيئاً ما يتمدد في أوصالي ، لعله الألم ، يخرج من القلب ويتوزع على أنحاء جسدي ، وأفكر بما انحرفت إليه مهمتي ، فقد جئت أبحث عن رجل حي من لحم ودم ، وصار عليّ الآن فقط أن أعرف مكان جثته ، وبأمل ضئيل إذا كان محتجزاً في مكان آخر ، أشعر أنني لستُ أنا في هذه اللحظة ، ساعة زمني تتقهقر الى الوراء ، مع أنني تركت الوراء وراء ظهري .

بلغ الإرهاق الى أقصاه وأنا أتشبث بالحجارة ، وبدا الجبل ممتداً بلا نهاية كأنه ليس الجبل الذي صعدته قبل ساعات ، وكأن نتوءاته تحولت الى سكاكين باشطة تحز أصابعي وتدميها ، بحذر أتشبث بالصخور الصلدة ، أقطع النفس لئلا تنزلق

أصابعي ، ثم ما إن أتمسّك برأس الصخرة حتى أجذب النفس ببطء شديد مخافة أن تتحرك أصابعي وتنزلق ، ماذا لو تدحرجت وارتطم رأسي بصخرة ومت هنا؟

عند النزول الى الوادي في الطرف الثاني من الجبل شعرت بدوخة فتباطئت لكي لا أسقط الى الهاوية ، ألا تكفي الهاوية التي أنا فيها؟ بدت الأرض بعيدة جداً وخيل لي أن الصخور التي تسند قدمي تتحرك ، أخذت أنفاسي على مهل محاولة أن أنزع عنها اللهاث ، وقبل أن أصل الى الأرض بقليل شعرت بدوار ، تراقصت الأشياء من حولي ، تحركت من أماكنها وارتطمت بي ، الجبال والسفوح والأشجار والصخور والجداول وكل شيء ، كان وعيي ينحدر الى الأسفل ، وأصارع غيبوبة تحاول الانسلال الى جسدي ، أغمضت عيني وناديت على كاكا طارق فأسرع باتجاهي وساعدني على النزول الى الأرض والوصول الى الشلال :

- اغسلي وجهك واستريحي .

قال ثم تنحى جانباً ليدخن ، كم تمنيت في تلك اللحظة أن أرمي بجسدي تحت الماء الأزلي وأصير قطرة من قطراته وأختفي الى الأبد ، أصبحُ في اللاوقت ، أمّحي تحت هطوله ولم أعد من البشر .

حين استعدت توازني لم أستطع صدّ جريان دموعي ، اقترب مني كاكا طارق وجلس على صخرة تحيط بها نباتات

السرخس ، مرر أصابعه على أوراقها العريضة كأنه يبحث بينها عن كلام ، ثم حين وجده قال محاولاً التخفيف عني :

- هوّني عليك ، الدموع لا تأتي بنتيجة ولا تغير الحال .

قلت بيأس تمكن مني :

- ما الذي يغير الحال إذن؟ وماذا سأفعل في الأيام القادمة؟ أنا لا أستطيع العودة الى بغداد إذا كنت تعرف تفاصيل قصتي ، غادرتها بينما كنت ممنوعة من مغادرتها ، ماذا أفعل يا كاكا طارق؟

- أنتِ أمانة بأعناقنا ، لن تعودي قبل أن تجدي الحل الذي يناسبك ، كما أن هناك معلومة غير مؤكدة بعد ، وهي أن بعض المعتقلين وصلوا الى مديرية الأمن العامة في السليمانية ، طبعاً الوصول الى هذه المديرية شبه مستحيل ، لكننا سنسعى بكل الوسائل لعلنا نعرف الأسماء .

- لماذا لم تخبر رشدي ، ألم تقل بأنه يصل الى ما يصعب الوصول إليه؟

- رشدي مختص بحدود معينة وليست السليمانية من ضمن اختصاصه .

طال صمته ، وكنت أتابع ملامحه لعله يقول شيئاً يسكّن التوتر الذي يحفر في جسدي ، ثم صوّب عينيه نحو أفق مجهول ليقول كلاماً آخر :

- هل تعلمين يا سيدة نرجس ، أنا الناجي الوحيد من

عائلتي حين قصف النظام حلبجة بالكيمياوي ، كنت وقتها أعمل في بنجوين بالسليمانية ، وحينما عدت لم أجد أحداً ، كانت آلاف الجثث قد دفنت وآلاف أخرى تتناهشها الكلاب والطيور الجارحة ، والبعض ما يزال حياً يئن في آخر لحظات حياته بينما الكلاب تلتهم جسده ، بل حتى الكلاب التي أكلتهم أصبحت جثثاً ، وبعد بحث مضنٍ وجدت جثث أبي واثنين من إخوتي وأختي التي تكبرني ولم أجد أمي وأخي الرضيع حتى اليوم ، لكن بعد سنة وبالمصادفة ، وصلتني سراً مجلة من صديق كان قد هرب خارج البلاد ، شاهدت من بين صور عديدة صورة أمي ميتة وهي تحضن أخي ، وكتب لي الصديق تحت الصورة بأنها صارت مثل بوستر تتداوله وكالات الأخبار في الخارج ، مازلت أخفي المجلة في مكان تحت الأرض خشية أن تقع بأيدي السلطة . . لقد أرادوا محونا من الحياة .

توقف نهر الدموع ، شعرت بالخجل منه وهالني أننا لم نعرف حجم المأساة في عمليات الأنفال بسبب التعتيم الإعلامي ، كل شيء كان وما يزال محجوباً عنا ، مادام السفرممنوعاً ، والستلايت ممنوعاً ، والموبايل نسمع به ولا نعرف شكله . . . والعالم شيطان أخرس .

واصلنا السير ببطء ، عدنا قريبين من دكانة هوشيار ، من هناك اتصل كاكا طارق بابن أخيه سيروان ، جلست تحت ظلال شجرة توت ، وجاءني بطاسة لبن شنينة ، ورغيف خبز ، أعدت

الرغيف إليه ، كنتُ أشعر بعطش ولا أشعر بجوع ، وبينما كاكا طارق يجلس على كرسي أمام الدكانة ويتحدث مع صاحبها ، أخذتني دوامات الصور ، وعادت بي الى تلك البناية الغريبة ، الى الهياكل الزاحفة على البلاط العاري ، الى الأرواح المعذبة ، الآلام التي لا تحتمل ، وزاحمتها صور جديدة لم أرها بعيني لكنني رأيتها بمخيلتي ، صور الجثث التي تنهشها الكلاب والطيور الجارحة والكلاب التي أصبحت جثثاً ، حتى أنني أكاد أسمع الأنين الذي لا تسمعه السماء ، وأرمي سؤالي الى السماء : يا الله لماذا خلقت بعض عبادك بهذه القسوة؟

***

كنتُ مرهقة حدّ الاختناق بالهواء الذي أتنفسه ، انعدم الزمن ، جسدي ليس جسدي ، نام الوقت في كل مفصل من مفاصلي ولم أعد أحس بشيء ،كأنني لست من البشر ، مجرد شيء هلامي يتمدد في اللازمن ، هذا ما أحسست به في اللحظة التي استيقظت فيها وأنا في المضافة بعد نوم يشبه الغيبوبة ، تخللته استفاقات خاطفة وقلقة لم تأخذ مداها في الاستقرار ، خرجت من حلم غريب رأيت فيه يوسف ، كنت أمشي في طريق ، أحاول أن أسبق ظلي الذي يمتد طويلاً أمامي ، ففاجأني صوته ، جاءني من الجهة المقابلة ، كانت الدهشة تتملكه وهو يراني :

- ماذا تفعلين هنا يا نرجس؟

سرت عدوى الدهشة الى عيني وقلت :

- جئت أبحث عنك .

ولم أشعر بالغرابة حين قال :

- لكنني لست في هذه المدينة .

سألته :

- إذن أين أنت؟

فأجاب :

- أنا في مدينة اللامكان .

كان يمكن أن أسأله أين تقع هذه المدينة ، لكن صوتاً ما ندهني وأخرجني من ذلك الحلم أو ربما يكون تهويمات حلم يقظة مضطربة ، فتحت عيني بصعوبة ورأيت مزكين حاملة ترمزاً وكوبين ، أخبرتني بأنها تفقدتني أكثر من مرة عندما كنت في سابع نومة .

كنتُ ما أزال مشوشة بتلك الرؤيا ، وضعت أصابع يديّ على صدغيّ ورحت أفركهما لعل الصداع يتوقف ، وطلبتُ من مزكين حبوباً مسكّنة لأوجاع الرأس فقالت :

- الحبوب لن تفعل شيئاً ، أعددت لك شراب أعشاب .

ناولتني الشراب ، وتجرعته ، فيه قليل من المرارة ، لكنها ليست كالمرارة التي تطحن روحي ، صبت لها الشراب أيضاً وقالت : ستتعافين بعد هذا الشراب لأنه مهدىء لأوجاع الرأس ومنشط للدورة الدموية ، وانتظرتها تسألني عن رحلتي إلا أنها

لم تفعل ، يبدو أنها عرفت من كاكا طارق فلم تعد بحاجة للاستفسار مني ، كل شيء سيكون على ما يرام ، قالت ، وصبت لي المزيد من الشراب ، كنت واجمة لا أعرف ماذا أقول ، تتراجع دموعي في عينيّ وتقف وراء حافة الوجع لكي لا تترك للخيبة أن تأخذ زمام مصيري ، لكن عينيّ المخذولتين تشيان بها ، هل يمكن للخيبة أن تكون واضحة الى الحد الذي تكتشفه امرأة بسيطة مثل مزكين؟ هذا ما يبدو جلياً عندما اقتربت مني وربتت على كتفي في محاولة منها للتخفيف عني ، ابتسمت وبثقة قالت :

- تمرض الحقيقة ولكنها لن تموت .

وجدت نفسي أمازحها من دون أن تنفرج شفتاي عن ابتسامة :

- إذن اعطها شراب الأعشاب هذا لكي تتعافى بسرعة .

لكنني في داخلي كنت أتساءل : ما نفع الحقيقة إذا كانت مريضة ، وما نفع جثة إذا لم يعد صاحبها للحياة؟

شراب الأعشاب حسّن من تركيزي وحرك دمي ، لكنه لم يزحزح إحساسي بالضياع ، وقلتُ لها :

- أرى أن مشكلتي الآن تعقّدت ، فأنا لا يمكنني الرجوع الى بغداد ، ربما سأهرب خارج البلد ، ومن هناك أحتمي بمفوضية اللاجئين لتختار لي وطناً بديلاً .

لم تطرأ فكرة الوطن البديل تواً ، كنتُ قد فكرت بها وأنا

محصورة بين خوف وخوف ، بعدما خرجتُ من ذلك النفق مرعوبة ، داهمتني الفكرة لكنها لم تكن على هذا المستوى من الوضوح في رأسي .

انتفضت مزكين :

- الأوطان لا تُستبدل . . في موطن الآباء والأجداد الزعرور أحلى من التين .

كدتُ أضحك ، برغم الحزن الذي أنا فيه ، ليس من المثل ، بل من إصرارها على تعزيز ما تقوله بالأمثال . . قلت لها :

- لكنني أشعر بالضياع يا سيدة مزكين ، ولم تعد أرض الأجداد تعنيني ، لا بزعرورها ولا بتينها .

- لا تقولي هذا ، وما دمتِ معنا فلن تضيعي ، المهمة لم تنته بعد ، هذا ما فهمته من كاكا طارق وزوجي محمود عندما تناقشا في الأمر ، كاكا طارق لا يترك الناس في مأزق ، لكنني لا أعرف ماذا سيفعل لاحقاً .

وحينما خرجت قلت لها :

- بي جوع الى النوم .

فقالت :

- خذي راحتك لن أوقظك إلا وقت العشاء .

ما كانت بي حاجة ملحة للنوم لكنني رغبت فيه لعلني أكمل تلك المحادثة المبتورة مع يوسف وأسأله : أين تقع مدينة اللامكان تلك؟

بعد أيام قليلة أخبرها كاكا محمود بحضور زوجته مزكين ، بأنها ستنتقل الى السليمانية ،لم يعد المكان آمناً ، تسللت أخبار بأن حملة أمنية واسعة ستجري في خانقين بعد اغتيال ضابط أمن ، ومن الأفضل لها أن تكون في مأمن ، وأن كاكا طارق هو الذي سيأخذها الى إحدى القرى الجبلية القريبة من إيران . . وقالت لها مزكين بأن تلك القرى أكثر أماناً لأنها خارج المدن بمسافات بعيدة . . وهكذا تهيأت نرجس لرحلة جديدة لا تعرف كنهها .

لم يتأخر كاكا طارق ، وصل في صباح اليوم التالي ، في وقت مبكر لم تبدأ شمسه بعد ، وانطلقا نحو السليمانية ، ابن أخيه سيروان هو الذي أخذهما الى هناك ، في طرق ملتوية بعيدة عن الشوارع الرئيسية المعروفة ، ثلاث ساعات ، وربما أكثر إذ لم تعد مجساتها تعمل بالوقت المحصور داخل إطار الساعة ، بين الجبال الشاهقة والعيون النازلات من قمم الجبال ، والخضرة المبهجة غير المتناهية ، لكن كيف تبتهج وتحس بهذا الجمال الرباني إذا كان الاضطراب يعشش في رأسها مثل طيور النحس؟ إنها رحلة محفوفة بالمخاطر ، لا يكف ذهنها عن التوقعات . . والتوقعات كلها محفوفة بالمخاطر أيضاً .

أحياناً يبرز تساؤل فتهمس به لنفسها : ما الذي فعلته؟ أنا امرأة لا شأن لي بالسياسة ، كل ما أسعى إليه هو كشف الحقيقة لاختفاء رجل أحبه ، فلماذا هذا الرعب الذي يتملكني كلما انتقلت من مكان الى مكان . . لا تلبث أن تفكر بأن الأمر مختلف ، والخوف مبرر ، لأنها في حالة سقوطها بين أيديهم ستواجه تهماً لا تخطر على بال ، لأنهم سيبحثون تحت جلدها عما يريدونه هم وليس عما هو موجود أصلاً ، ما تحت جلدها يبدو لهم مضحكاً ، أي حب هذا الذي تتحدث عنه؟ وكيف تبيع الوطن من أجل رجل يعمل ضد الوطن لمجرد مشاعر مضحكة اسمها الحب؟ من جاء بها الى هنا أصلاً؟ كيف تجازف وتدخل المناطق المحرمة ، إلا إذا كانت شريكة في فعل بحجم (الخيانة العظمى وتهديد أمن البلد)؟

هل حقاً ما تهمس به لها هواجسها؟ ألهذا الحد بلغ بها هلعها؟ أم أنها تبالغ لأن ذخيرتها من الصبر تكاد تنفد .

الخوف عالم متشابك ، مثل شجر معمر منذ آلاف السنين ، استطال وتشابكت أغصانه وتمدد الى ما لا نهاية ، عالم غير مرئي ، لكن المرء يشعر به حين يتسلل إليه مثل أفعى تبحث عن طعامها في قلب وروح من تتسلل إليه ، تلدغه وتشله عن الحركة بعد أن تقذف سمومها في جسده . . لكن نرجس تحاول قدر ما تستطيع ، ببقية صبر ، وبقية إرادة ، وبقية أحلام ، أن تدرأ خطر تلك الأفعى ، لا رجوع ولا استسلام ،

إنها ماضية لأنها لم تجد طرقاً أخرى لتغيير مصيرها .

وها هي تصل الى قرية من قرى بلدة تدعى قلدز شمال مدينة السليمانية ، قريبة من الحدود الإيرانية ، تحيط بها الجبال فتشعرها ببعض الأمان ، ريثما تعبر الحدود في الوقت المناسب إذا ما وصلت الى طريق مسدود بشأن قضيتها ، فهناك كما أخبرها كاكا طارق وسائل لم تستنفد بعد ، ولا تعرف الوقت الذي ستقضيه حتى يأتي الفرج بحسب توفر ظروف الأمان . .ولم يكن يدور بخلدها أن تهرب الى ايران ، كانت قد أبدت رغبتها في حالة اضطرارها للخروج من البلد في التسلل الى تركيا ، لكن كاكا طارق نصحها بأن أقصر الطرق وآمنها هي الطرق المؤدية الى إيران بحكم قرب البلدات من الحدود الإيرانية ، وأن هناك من يهتم لأمرها ويرشدها الى مكاتب المفوضية ، وفي الوقت نفسه كان له رأي آخر في هروبها الجديد هذا ، لأن الأوضاع في البلد تنذر بحرب جديدة على وشك الوقوع ، وقد تتغير اللعبة هذه المرة ، نرجس نفسها لم تكن متحمسة في قرارة نفسها لهروب جديد ، لكن حياتها غير مضمونة العواقب في خانقين ، ومن ثم في قلدز وإن بدرجة أقل ، فقد شعرت في قلدز أن الجبال الراسخات ستحميها ولكن الى أي حين؟

عاشت نرجس في بيت حجري من ثلاث غرف ، عند قاعدة جبل مخضر من قمته حتى قاعدته ، ومع قريبة من

قريبات كاكا طارق تدعى روجدا ، من أب كردي وأم عربية ، إمرأة ذات روح مرحة ونابضة بالحياة ، وهي أرملة مات زوجها منذ سنوات في حادث انزلاق أثناء ما كان يصعد الجبل فهوى الى الوادي العميق ، تعيش مع ابنها شيروان وهو في الثالثة عشرة من العمر ، وتعمل في مزرعة خضار صغيرة ورثتها عن زوجها تقع خلف البيت مباشرة ، يأتي إليها أخوها دلير كل أسبوع ليحمل ناتج المزرعة على بغلين لتعذر دخول السيارات ، ويصرفه في القرى المجاورة بطريقة البيع المباشر بمساعدة شيروان الذي يعمل معه أيضاً في حقل للدواجن ، ولكي لا تظل نرجس عاطلة أمام هذه المرأة العاملة فقد بدأت العمل معها ، تقطف عناقيد العنب والخيار والبطيخ والتفاح ، تجمعها في سلال وجوالات صغيرة مثلما تفعل روجدا ، تطش الحبوب أو فضلات الطعام أمام قن الدجاج ، وتجمع البيض من الزوايا ، خمس دجاجات بياضات وديك في قن مشبّك ، تحت ظلال شجرة سنديان ضخمة .

لفت نظر نرجس كثرة التحف البرونزية والنحاسية في بيت روجدا ، لما رأتها تطيل النظر الى التحف قالت لها روجدا :

- أحب التحف ، أقتنيها عادة من سوق الصفافير كلما زرت بغداد ، وأحرص على أن تكون لها علاقة بتاريخ العراق ، هواية تعلمتها من أمي ، ستجدين في كل زاوية تحفة ، الزقورة ، أسد بابل ، ملوية سامراء ، الجنائن المعلقة ، الثور المجنح ، أدوات

منزليـة مثل السماور ، ودلال القهوة وأباريق الشـاي والطاسات والفوانيس ، والمباخر ومرشـة مـاء الورد ، وأشيـاء أخرى . . . . ستعجبك .

في أول ليلة وصلت فيـهـا نرجس الى قلدز لم تنم إلا في الساعات الأخيرة قبل طلوع نهار جديد ، كعادتها حينما تصل مكاناً لا تعرفه وتلتحف أغطية غريبة عن جسدها ، استيقظت عند صيـاح الديك ، نسـائم أيلول البـاردة تدخل من الشـبـاك المفتوح وتداعب الستائر الشفافة ، تقلبت في الفراش وأحست بأنـهـا منهكة ، قـامت وغسلت وجـهـهـا بماء بارد ، ونظرت من الشـبـاك المطل على قن الدجـاج ، كف الديك عن صيـاحـه واقترب من الدجاجات ، ديك أبيض كبير الحجم ، متوّج بعرف أحـمـر ، ريش ذيله ذهبي طويل ، كـان يتـحـرك متـبـختـراً بين الدجـاجـات اللواتي أحطن به ، اخـتـار من بينهن الدجـاجـة المتفردة بلونها الأبيض ، ركـبـهـا ممسكاً رقبـتـهـا بمنقـار ، وفـارداً جناحيه عليها ، متزاوجاً معها أمام أنظار أربع دجاجات بُنيّات اللون ، حسودات لا يتورعن عن ملاحقته طيلة ما سيأتي من وقت ، مـتـمـسكنات قـرب جناحـيـه وذيله المنفوش ، كـأنهن الجـاريات وهو سلطان زمـانه . . ومن قلب الأحـزان خـرجت ابتسامة ونبتت على شفتي نرجس ، لكنها سرعان ما توارت .

***

كـانت نرجس تعـيش مـشـاعـر مـضطربـة بين الرحـيل عن

البلد والبقاء داخله إذا كانت ثمة فسحة من أمان تجدها بين الأكراد ، وقد كانت في قرارة نفسها لا تميل الى الهجرة بعد أن تبين لها حسن نوايا الناس الذين احتضنوها ، وإنما تأمل بصحة خبر لم تؤكده الأيام الماضية بأن يوسف قد يكون في دائرة أمن السليمانية ، مجرد ذريعة للبقاء أو وهم من الأوهام ، فهي تعرف أن الأمل ضعيف لكنها تفضل أن تتبع وهماً على أن تمضي الى المجهول في بلدان أخرى ، وقد وجدت في روجدا تعاطفاً كبيراً معها ، كانت تحدثها بلهجة عربية ، ولا تكف عن الغناء وهي تعمل في المزرعة ، تحفظ الكثير من الأغنيات العراقية والعربية ، تغنيها فتجر معها نرجس لتردد معها مقاطع الأغنية ، وتضحك من كل قلبها كأن الطبيعة منحتها سرّ البهجة لتعيش حياتها راضية وقانعة ، تقول لنرجس : بيت الطرب ما خرب ، ثم تتابع الغناء ، وقد شعرت نرجس بأن نفسيتها تحسنت بمرور الوقت ، وفكرت كثيراً حتى توصلت الى أن الهجرة خارج الوطن هي موت آخر سيتسسلل إليها ببطء ، لذلك كانت جادة في العمل مع روجدا ، وبمرور الأيام لم تعد تشعر بثقل الضيافة طالما بدأت تعمل في المزرعة ، لكنها لم تصرّح برغبتها في البقاء ، تركت الأمر للأيام ، وكلما جاءت سيرة هروبها خارج البلد تذكرت زعرور مزكين وتينها ، وجاءت روجدا لتعزز قناعتها بالبقاء :

- من الصعب على الإنسان أن يغير جلده ، الهجرة مثل مرض السرطان ، يأكل الجسم بصمت ثم يفترسه مرة واحدة .

وحينما تضيق بنرجس فسحة الأمل تتمنى لو افترسها هذا المرض اللعين مرة واحدة .

والأيام تجر الأيام حتى حدث ما لم يكن بالحسبان . . بين مصدق ومكذب ومذهول وقع الخبر على الأسماع ، هكذا فجأة ، غزا النظام دولة الكويت وألحقها بمحافظاته ، عبرت الأرتال العسكرية في دجى الليل مثل لص يحتمي بالظلمة لينقض على فريسته ، واستيقظ الناس في الكويت على كابوس ثقيل لم يخرجوا منه لأنهم عجزوا مثلنا عن تبريره ، نُهبت الدوائر الرسمية بكل محتوياتها ، وبيوت الناس ، والمصارف والمؤسسات الأهلية وكل شيء طالته يد النظام الذي لم يذعن لكل النداءات الدولية بالخروج من الكويت . . . . كابوس امتد سبعة أشهر ، وعاش البلدان بانتظار أن يخرج جنين الخلاص من الرحم المظلم ، فخرج أخيراً ، في الكويت لبدء حياة جديدة ، وفي العراق مشوهاً لحياة أخرى أكثر ظلاماً .

لقد انتخى العالم ليعيد الحق الى نصابه ، فتحررت الكويت ، لكن هذا العالم نفسه لم يلتفت لحق الشعب الأعزل في العراق ، الذي واجه مصيره القاسي بعد أن دعاه للانتفاضة على حاكمه ، أبقى على الحاكم وعاقب الشعب بأطول حصار عرفه تاريخ البلد .

قُتل من قتل في الكويت ، وأسِر من أسِر ، وخرج من استطاع الخروج ، جنود محبطون ، مرهقون ، منهكون ، جائعون ،

غاضبون ، وحانقون على من زجهم الى المهالك ، يبيعون بنادقهم الى تجار الأسلحة الذين ظهروا فجأة ، من أجل استكان شاي أو كسرة خبز أو سيجارة . . . . ثم تفجّر بركان الغضب .

بدأت شرارة الانتفاضة من ساحة سعد في البصرة ، بدأها جندي كان قد باع قبل قليل بندقيته ،لكنه استردها وتوجه الى جدارية من جداريات الرئيس ليفرغ فيها رصاصاته وغضبه ، فوجدت لها صدى بالهتافات والأهازيج والدعوة لإسقاط النظام ، وهاج العائدون بالغضب والأهالي العزّل باتجاه المباني الحكومية ومخازن الأسلحة والمقرات الأمنية والحزبية ، وسيطروا على كل شيء حتى أصبحت البصرة بأيديهم ، وامتدت الشرارة الى المدن الأخرى لتشتعل في ميسان وذي قار والديوانية والمثنى وبابل وواسط والنجف وكربلاء ، وتمضي نحو الشمال فتنطلق من مدينة رانية في السليمانية . . رانية التي تعني (طريق مسدود) تنفتح طرقها وتفتح باباً للغضب الكامن ، هاجت الجموع باتجاه الدوائر الأمنية والسجون والمقرات الحزبية ، حرروا السجناء وقتلوا مدير الأمن الأحمر وطاردوا الحزبيين وقتلوهم بالرصاص وبكل ما ملكت أيديهم ،لتعبر الانتفاضة الى دهوك وكركوك وأربيل ، ولم تعد للنظام سيطرة على هذه المدن .

كان الوقت ينهش نرجس ، إنها بانتظار كاكا طارق أو من يرسله لها ، تريد الوصول الى دائرة أمن السليمانية ، الدائرة

التي تسمى بالأمن الأحمر ، لم تعد تطيق صبراً ، توسلت بدلير ، قالت له :

– خذني معك على البغل ، أوصلني لأي مكان يمكنني فيه الوصول الى تلك الدائرة .

عارضها بشدة :

– أنت لا تدركين ماذا يحدث ، إنها فوضى عارمة والرصاص لا يتوقف في كل الطرق ، فكيف تمضين الى المنطقة الأخطر؟ الأفضل أن تنتظري كاكا طارق . .

رضخت نرجس مرغمة ، وطلبت من دلير أن يتصل بكاكا طارق بأية وسيلة .

بعد عدة أيام كانت تبدو لنرجس كأنها توقفت عن دورانها ، وصل كاكا طارق ، كان منهكاً ، ولم يتحمس لأخذها الى دائرة الأمن الأحمر ، قالت له لكي تقنعه بأنها لم تعد خائفة ، وإنها بكامل قواها وقوتها لتقبل ما سوف يحدث لها . . لكنه اعترض بشدة وأفهمها بأن الأوضاع غير مستقرة ، ولا يُعرف مدى ما ستصل إليه ، عسكريون يفرون تاركين ثكناتهم ومستعدون لإطلاق الرصاص على أي شخص يشتبهون به ، وجثث تملأ الشوارع لمجرمين وأبرياء ، وقناصون على المرتفعات لا يميزون أهدافهم فيطلقون الرصاص على المارة ، والحزبيون يفرون تاركين مقراتهم ويطاردهم الأهالي فيقتلونهم أخذاً بالثأر ، وما تزال جثثهم في الطرقات .

وهنا تدخلت روجدا :

- بشّر القاتل بالقتل ، هؤلاء قتلة ويستحقون العقاب .

اعترض كاكا طارق :

- أنا ضد الثأر الأعمى ، لأن القتل يولّد القتل .

أبدت روجدا استغرابها :

- أليس هؤلاء من تسببوا بقتل عائلتك؟

قال كاكا طارق بعد أن أشعل سيجارة :

- لو كل واحد أخذ ثأره بيده فلن تتوقف الفوضى .

ردت عليه مستنكرة :

- هل تتنازل عن حقك؟

شفط نفساً من سيجارته وزفر الدخان الى الأعلى ثم قال :

- لن أتنازل عن حقي بالتأكيد ، لكنني أنتزعه بالقانون .

ردت عليه منفعلة :

- كيف تريد لمن رأى زوجته أو أخته تغتصب أمام عينيه ، وتعرض لأبشع أنواع العذاب أن ينسى؟ هل تريد منه أن يقتل مشاعره ، ويقول عفا الله عما سلف؟

قال كاكا طارق بعد أن أخذ نفسين متتاليين من سيجارته :

- أنا لا أقول عفا الله عما سلف ، ولا أطلب من الضحية أن تقتل مشاعرها وتمحو ذاكرتها ، لكنني أتمنى عليها أن تضبط مشاعرها لكي يأخذ القانون مجراه .

حدقت روجدا بوجه كاكا طارق ، وبحدة قالت :

- عن أي قانون تتكلم يا كاكا طارق؟ هل قتلونا بقانون؟ ألم يقل لنا أجدادنا منذ القدم العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم؟

أرادت نرجس بعد أن احتدم الجدل بينهما أن تغير الموضوع لكي لا يتطور الى شجار بينهما ، فسألت كاكا طارق :

- هل تظن بأن هذه الانتفاضة ستنهي النظام؟

قال كاكا طارق وهو يطفىء عقب سيجارته في المنفضة :

- لا أدري ، الأمر يعتمد على زخم وقوة المنتفضين .

وأرادت روجدا أن تثير الجدل مرة أخرى :

- يبدو أنك فقدت الأمل والإرادة أيضاً .

لم ينفعل كاكا طارق ، وإنما رد عليها بهدوء :

- لو أنني فقدت الأمل والإرادة لكنت في عداد الأموات .

وأغلق باب الجدل عندما نهض قائلاً :

- عليّ أن أعود ، بانتظاري واجبات كثيرة .

***

ليس لدينا وسيلة نرى من خلالها ما يحدث على الأرض ، نعمة الستلايت والإنترنت والموبايل لم تهطل علينا بعد ، الإذاعات تنقل خسائرنا في الكويت ، وطريق الموت من البصرة الى المدن الأخرى مبهم ، وتقول الأخبار الخارجية بأن النظام انتهى ، والثوار سيأخذون زمام الأمور لأن المدن العراقية تسقط واحدة إثر الأخرى بأيديهم ، ثم نسمع أخباراً على النقيض من محطتنا التلفزيونية الوحيدة قبل أن تسكتها الصواريخ ، فنلجأ الى إذاعاتنا البديلة المتحركة وهي تبث الأغاني الحماسية ، أغاني النصر الكبير ودحر الأعداء ومطاردة الغوغاء الذين تحركهم القوى التي لا تريد الخير لهذا الوطن . . فمن نصدّق؟

ولأن الكذب حباله قصيرة ومتهرئة ، فلابد للأمور أن تتضح ، طال الوقت أم قصر ، لكن الأخبار التي تصل الى هذه القرية المنعزلة شحيحة ومنقوصة ، ورروجدا تتسقط الأخبار من القادمين ، لكنها أخبار لا تسندها الرؤية ، إذ تسبق كل خبر كلمة يقولون ، وتكثر الأقاويل . . حتى دلير لم يعد يعرف شيئاً لأنه توقف عن الذهاب الى مركز المدينة ، بسبب الفوضى وخوفاً من الرصاص الطائش ، وفي الجو روائح أخبار سيئة تركض ولا تتوقف .

بعد أسبوع من زيارته الأولى عاد كاكا طارق الى قلدز ، فاجأت نرجس زيارته ، كانت في المزرعة تشذب الشجيرات ، نادتها روجدا من فتحة شباك المطبخ لتخبرها بمجيئه ، رمت كل شيء وهرعت ، كان يجلس على كرسي تحت عريشة العنب عند مدخل البيت ، ألقت نرجس عليه التحية بأعصاب متوترة وهي تحدق بعينيه ، تتابع انكماش عضلات وجهه وخطوط جبينه التي تجعدت ، أحست بأن أمراً سيئاً تحمله لها تلك الملامح ، شعرت بذلك مع كل خلجة من خلجاته ، وكان يشيح بوجهه كلما التقت عيناها بعينيه ، لكن عينيه تفضحان خبراً لا يعرف كيف يقوله ، وبعد وقت من صمت مشحون بالترقب سألته نرجس بصوت مخذول :

- كاكا طارق ، ماذا تخبىء؟

نظر الى الأعلى كأنه يطلب من السماء أن تعينه على ما سيقوله لها ، أشعل سيجارة ونفث دخانها ، ثم استجمع الكلمات :

- البلد يحترق ، وأنا الآن ضمن لجنة تشكلت سريعاً ، مهمتها جمع الوثائق لكي لا تضيع ، فالأهالي هائجة ، لم تبق دائرة أمنية أو فرقة حزبية إلا ودخلوها ، بعضهم سرق ما وقعت عليه عيناه من ملفات لغرض إخفائها ، أو إحراقها لطمس الأدلة التي تدينه بتهمة التعاون مع الأجهزة الأمنية ، وبعضهم سرق الوثائق من أجل المتاجرة بها فيما بعد لابتزاز ذوي

الضحايا من أجل المال ، ولذلك قمنا بتشكيل هذه اللجنة للحفاظ على ما تبقى من الوثائق .

صمت ، فتعلقت عينا نرجس بشفاهه وبملامحه التي تتقلص وتخبىء ما لا يسر ، وللصمت طعنة سكين باشطة تنغرز في قلبها . . أخذ عدة أنفاس من سيجارته ثم واصل الكلام :

- استنسخنا بعض الوثائق الخاصة بأسماء المعدومين ، وعلقناها على واجهات الدوائر الأمنية التي وجدت فيها .

تحفزت نرجس وهو يمد يده الى جيب سترته ويخرج ورقة :

- هذا ما يخصك يا سيدة نرجس .

كان من الصعب عليها أن تمسك بالورقة ، فقد ارتعشت كل مفاصلها ، وسقطت الورقة على الأرض بمجرد أن لامست أصابعها ، انحنى كاكا طارق وحملها ليعيدها إليها ، وقال :

- أعرف أن الموقف صعب ، تقبلي عزائي .

وجمت ، كأن الكون كله وجم معها ، وأحست بأنها تتكسّر وتنثلم ، وأن قلبها الصغير ارتطم بأضلاعها لكي يفر من قفصها الصدري ، وانفتح صنبور دمعها صامتاً ، لا تدري من أين تهطل الدموع ، من عينيها أم من قلبها المفجوع أم من روحها المنسحقة ، انغرزت عيناها بالورقة ولم يعد الكرسي يحمل جسدها ، جثت على ركبتيها ، تبحث عن أسباب مقنعة لإعدام يوسف فلا تجد ، كأن الأمر باغتها مع أنها

وضعت نصب حدوسها احتمال موته ، قرّبت الورقة من عينيها الهاطلتين بالدمع ، مجرد أسماء سبعة تسبقها عبارة الحكم عليهم بالإعدام من دون ذكر الأسباب . . بأية طريقة تم إعدامهم؟ شنقاً حتى الموت؟ رمياً بالرصاص حتى الموت؟ رمياً من أعلى جبل كما سمعت هنا؟ تجويعاً حتى الموت؟ أم دفناً وهم أحياء في الصحارى والبراري وتحت الأبنية الأمنية؟

أحضرت روجدا الشاي ، وضعته بهدوء على طاولة صغيرة ، وصمتت إزاء الصمت المخيم على نرجس وكاكا طارق ، نقلت عينيها بينهما ، كأن الزمن توقف على يدي نرجس وشفتيها وهي تمسك بالورقة ، عيناها على الرقم سبعة ، يوسف حسن عمران ، اسمه فقط ، كأنه ينبت أمامها مثل شجر ، ويمر عليها مثل نسمة عبرت ولم تترك سوى عطرها وشغف الإمساك بها ، لم يعد موجوداً ، كأنه لم يأتِ للدنيا ، أو كأنه جاء على هيأة حلم ثم انتهى الى كابوس .

وأخيراً نطقت ، خرجت الكلمات مشروخة ومتعثرة وهي تطلب من كاكا طارق أن يوجد طريقة لإيصال هذه الوثيقة الى مخلص فاروق ، فهو وحده من يمكنه العثور على عائلة يوسف . . فوعدها بأنه سيرسل نسخة متى ما وجد طريقة لذلك ، ستحتاج وقتاً أطول من صبرها لتستوعب أن يوسف لم يعد في سجل الأحياء . . في كل مرة كانت تؤجل احتمالات موته فلعل المعجزات ما تزال على الأرض ، أما وقد أمسكت

بدليل موته فستبقيه حياً في قلبها ، وتتنفسه مع الهواء ، وستراه في اخضرار المروج التي تذكرها بلون عينيه ، وبكثافة الغابات الرابضة في الكون ، وتهمس له وهو في غيابه الأبدي بأنها لم ولن تحب رجلاً سواه .

***

ها نحن نقف على أعتاب مأساة جديدة ، بل ندخل الى قلب المأساة ، فعلى الرغم من خروج ثلاثة أرباع البلاد عن سيطرة النظام إلا أن الانتفاضة أجهضت . .دول التحالف التي باركت في البدء قيام الانتفاضة ، ما لبثت أن عادت وغيرت موازينها . . السياسة مصالح ، ومصالح الدول تميل في هذه اللحظة وضمن حساباتها الدقيقة الى بقاء النظام ، فلم تكتفِ بالتفرج على مذبحة الشعب بل سمحت للنظام باستخدام الطائرات لسحق الانتفاضة ، وهو من جانبه لم يقصر حتى باستخدام الأسلحة المحرمة دولياً ، وزحفت قواته على المدن لتعيدها الى طاعته بالقسوة التي عُرف بها ويعود للحياة بالروح السابعة للقطط .

مرت البلاد بعدها بأسوأ حالة حصار وتنكيل وتدجين أيضاً ، لكن مدن كردستان وجدت حماية دولية ، وتمركزت القوات الأمريكية في زاخو لحمايتها ، إلا أنها لم تخرج تماماً من سيطرة النظام ، لكن لم يعد للنظام فيها تواجد أمني وفرق حزبية .

تنفست نرجس ، هواءاً من دون هواجس ، لم تعد سجينة البيت والمزرعة ، صارت تخرج من دون خوف ، تذهب أحياناً مع دلير الى تصريف الخضار في مركز المدينة ، وصارت خطة هروبها الى إيران بحكم الماضي ، لكنها لم تستطع حتى التفكير بالعودة الى بغداد بعد ما جرى ، من لها هناك؟ لا أحد سوى الذكريات التي آثرت الاحتفاظ بها في الرأس مع كثير من الغصات ، أحياناً تفكر بمصير مخلص فاروق ، هل مايزال في مكتبته يشم روائح الكتب في شارع المتنبي؟ هل تسير حياته مثل نهر هادىء تحفه أشواك الخوف؟ هل يتذكرها ويتساءل أين هي الآن وماذا تفعل؟

عليها الآن أن تساير أيامها ، أن تلملم أشلاءها المتناثرة ، أن تعمل لكي تعيش ، دونما أحلام أو تخطيط لقادم الأيام ، رمت حمولتها على ما سيأتي ، وهذا الذي سيأتي لا تقف في محطته بانتظار قطاره الذي سيعبرها ، تفتتح صباحاتها بالامتنان أنها ماتزال على قيد الحياة ، وتترحم على من دفعوا حياتهم ثمناً لحرية لم يتذوقوها ، ثم تنشغل مع روجدا بالمزرعة ، تحرث وتبذر وتسقي وتقطف الثمار ، صارتا مثل أختين تؤازر إحداهما الأخرى ، لم تعد المرأة الغريبة التي تثير التساؤلات

المريبة عن تواجدها في القرية ، صار الناس هناك يعرفونها بأنها قريبة روجدا ، تخرج معها في المناسبات الى الطبيعة الزاخرة بعطائها ، لجمع النباتات البرية التي تدر ربحاً في مواسم إزهارها . . تعلمت أسماء نباتات ما كانت تعرفها من قبل ، تُستخدم في الطبخ أو تقدم للضيوف كفاكهة أو تعجن مع الطحين لتُخبز ، أو تجمع لتباع في الأسواق وهذا ما درجت عليه بالتعاون مع روجدا وابنها شيروان .

في بعض الأيام تأتي روزان زوجة دلير ، شابة جميلة ذات بشرة وردية شفافة كأنها ملاك ، استعصى على نرجس التعامل معها لأن روزان لا تعرف العربية ، يخرجون جميعاً من الصباح الباكر ، يبحثون عن تلك النباتات التي تكثر وتزدهر في مواسم القطاف ، على السفوح وفي الوديان والبراري ، بعضها ينمو تحت الأرض ويحتاج الى أداة تدعى الخلج ليُقتلع ، وبعضها الآخر ينمو على الأرض . . الكعوب والقراض والكمأ والريواس والجورين والكراث البري والكويزي والطولك والطرشوك ، ولكل نوع من هذه النباتات له طعم خاص وطريقة في الطهي أو يضاف الى السلطات والمقبلات ، وبعضها يستخدم لعلاج بعض الأمراض .

صارت لنرجس حصيلة من معرفة نباتية بفضل روجدا ، بعد أن تعود مع روجدا وشيروان يقوم الجميع بتنظيف النباتات وحزمها ، تضيف اليها ما تيسر من غلة المزرعة من الفواكه

والخضار ، فتمضي مع شيروان أو دلير الى سوق المدينة ، تعود بعدها عند العصر ، تغتسل وتدهن يديها المخشوشنتين وتشعر بالرضا أنها أصبحت عاملة ولها أصدقاء يعاملونها كواحدة من أفراد الأسرة ، تشارك معهم مناسباتهم في مواسم الفرح حيث طوت الناس أحزانها وفتحت كوّات للبهجة .

إنك لا تستطيع صدّ البسمة وهي تخرج من بين شفاه الأسى ، ولا رياح مواسم الفرح التي تنبثق من تحت الركام ، ولا يمكنك بأي حال من الأحوال أن توقف عجلة الأفراح حتى لو وضعت في طريقها جدراناً عالية من الأحزان . . هكذا تعوّد الناس أن يفعلوا حين تأتي الأعياد ، يقولون لك : عيدك سعيد على الرغم من علمهم أن السعادة لم ولن تطرق بابك ، ويحتفون بالطبيعة وخيراتها كأنهم يعيشون أبداً ، وهي الطبيعة ذاتها التي كانت شاهدة على موت أحبائك بين جنباتها .

إنه عيد نوروز ، أول عيد تخرج فيه نرجس من إقامتها القسرية الى الطبيعة التي تفتحت في جبال وسفوح ووديان كردستان بكل الألوان وأزهرت بكل الأطياف . . قبل ذلك أخذتها روجدا الى سوق ملوي في السليمانية ، الى الخياط آزاد أشهر مصمم وخياط في المدينة ، ليفصل لها زياً كردياً يناسب طبيعة الاحتفال ، في ورشته رأت العديد من الأزياء ذات الألوان البراقة بتطريزات ملونة ومطعمة بالأكسسوارات والخرز والمخشلات الذهبية والفضية ، واختارت تصميماً بذوق مشترك

مع روجدا والخياط آزاد ، ويوم ارتدته للخروج تعثرت وكادت تسقط لطول الثوب الذي يتجاوز القدمين ، لكن الضحكة وجدت طريقها رائقة على شفتيها ، خرجت الى الاحتفال منبهرة بما شاهدته ، فحين تبدأ الطبيعة بتجديد أثوابها ، يجدد الناس حياتهم ، يرتدون أحلى ما عندهم من ثياب مزركشة ولّماعة تحاكي الطبيعة بألوانها ، ويخرجون الى السفوح الفسيحة والجبال المخضرة وينابيع الماء الصافية ، يرقصون الدبكات ويغنون ويأكلون ما جادت به أياديهم ، ثم يؤوبون الى البيوت بانتظار يوم آخر يكملون فيه أفراحهم ، هكذا هي الحياة في هذه القرى الجبلية ، دونما تفريط بذكريات أحبتهم الذين قضوا بالرصاص أو بالتعذيب داخل المعتقلات أو بالكيمياوي ، فهؤلاء مثل وشم مطرّز وغائر في أعمق أعماقهم ، يستذكرونهم في مناسبات الأحزان ، يذهبون الى مقابرهم ، أو الى الرموز التي وضعوها لهم لأنهم حتى الآن لم يجدوا لهم أي أثر ، وفعلت نرجس مثلما يفعلون ، وضعت رمزاً ليوسف ، صخرة منحوتة عليها اسمه ، وضعتها أسفل شجرة سنديان ، أحاطتها بأزهار النرجس لتكون لها دلالتان ، فهذه الزهرة التي حملت نرجس اسمها تمثل مدن الشمال من بين جميع الأزهار لما لها من تأثير على النفوس ، لعطرها النفاذ ولوفرتها وتعدد أنواعها في موسم الربيع . . وحينما تجلس قربها تحس بأن روحه ترفرف من حولها ، فتناجيه بهمس : أخرجوك من الحياة ، فكيف أخرجك

من قلبي؟ غيبوا جثتك ، فجعلت قلبي وسادة لك ، قصتنا التي ما اكتملت ستكتمل بسطوع ذاكرتي ، روحك التي انتزعوها تحوم من حولي وترعاني . . سأقشّر الأيام حتى ألتقيك .

***

تستريح نرجس تحت ظلال شجرة سنديان بعد ثلاث ساعات من العمل في المزرعة ، تتكىء على جذع الشجرة وتتأمل حياتها ، كيف كانت والى أين انتهت ، جاءت تبحث عن شيء ووجدت شيئاً آخر رسم لها حياة ماكانت تخطر على بالها ، تداهمها الذكريات فترى مخلص فاروق في مكتبته ، تفاجئه بحضورها فيشهق ويقوم من خلف مكتبه ليرحب بها ويسألها عن رحلتها ، تحكي له تفاصيل ما جرى في بحثها عن يوسف .

وحين يحضر يوسف في ظلال ذكرياتها تتوقف عند مباهج الحب الذي كان وليس لما انتهى إليه ، تذهب بعيداً الى طفولتهما فترى بيوت الرمال على الشاطىء ، تلك التي يمحوها موج النهر فيعيدان بناءها . . تلقي بها الذكريات الى اللقاءات الحميمة ، مستعيدة تلك القبلة التي لم تتكرر ، تنبسط أساريرها وتتفتح مثل زهرة وهي تعيش اختلاجات الحب وإنْ بطريقة مستعادة ، ثم يحط رغماً عنها ذلك الشرطي الجلف الذي كاد يعتقل حبهما في متنزه الزوراء ، وقبل أن يرفع سبابته بوجه يوسف ، تعيدها روجدا الى أرض الواقع ، بصوتها الشجي

وهي تردد مقاطع من أغنية ماجد المهندس :

وينه ذاك الحنان

يعني معقولة خان

ما خدعنا بعضنا

الزمن بينا خان

وين إنت واجيك

واغفى ما بين اديك

لوشفتني حبيبي حالي يصعب عليك .

يترقرق الدمع في عيني نرجس ، لكن روجدا تقلب موجة الحزن حين يصدح صوتها بأغنية مصرية كان لها شهرة في الثمانينيات لمطربة رقيقة اعتزلت الغناء تدعى حنان :

إضحك بقه وافردها يا عم

خلّي عنينا معاك تحلم

إضحك واخلص من التكشيرة

خذلك للأفراح تأشيرة

إيه في حياتك تاني أهم .

فيتراجع الدمع في عينيها مفسحاً الطريق لضحكة ترتسم على وجهها ، ثمة فسحة أن ترى جوانب أخرى للحياة ، في الغناء ، وفي الرضا ، وفي هذه الطبيعة الخضراء التي تعيش عليها ، وفي النزهات التي صارت تخرج إليها من دون خوف مع روجدا وابنها شيروان حيث البراري والسهول والمروج المكتنزة بالخيرات .

على بعد أمتار بركت الدجاجات يتشمسن بعد وجبة الطعام ، هادئات خاملات من دون ديك . . . أين ذهب الديك؟ عيونهن على الزاوية التي اختفى منها ، وحينما يطل بعرفه المرفوع وريشه الزاهي المنفوش يبدأن بالحركة والنشاط ، يتبعن خطواته أنى مضى ، ويحطن به كلما توقف ، ناظرات منتظرات ، لكنه سيختار الدجاجة البيضاء أيضاً وينقض عليها ، وستنتزع نرجس ضحكة عالية من أعماقها تصل مسامع روجدا . . وتقول مع نفسها : هذا الديك إما أن يكون عنصرياً ، أو أنه لا يطبق الشريعة ، كان عليه أن يعدل بين دجاجاته .

وتأتي روجدا مسرعة ، بيدها صحن فيه قطع مسلوقة من نبات الكعوب مخلوطة مع اللبن ، تضعه أمام نرجس وتسألها عما أضحكها ، فتحكي لها نرجس قصة الديك مع الدجاجات ، إلا أن روجدا تطمئنها بأن هذا الديك أكثر عدلاً من أي ديك آخر ، وأن ما لاحظته نرجس جاء محض مصادفة لأن الديك يجامعهن جميعاً ، وفي هذه اللحظة علت أصوات الدجاجات فإذا بالديك يعتلي دجاجة بنية كأنه يؤكد كلام روجدا ، فضحكتا . . وقالت روجدا بانشراح بعد أن انتهى الديك من مهمته :

- إن الديوك أكثر شبقاً من الإنسان .

هذه المعلومة لم تسمع بها نرجس من قبل فسألتها عن

مصدرها ، وبكل ثقة تجيب روجدا متباهية :

- أنا . . . وحينما تلمح ظل شك في عيني نرجس تواصل روجدا الكلام ضاحكة :

- اجلسي أطول فترة ممكنة في المزرعة ، وسجّلي كم مرة يتزاوج الديك مع دجاجاته ، عندها ستكتشفين أن الرجل لا يرد نساءه بهذا العدد من المرات المتاحة للديك .

وحينما تضحك نرجس عالياً تقول لها روجدا :

- نعم ، افرديها واضحكي ، الحياة ضحكة ، أما الدموع فهي آخر الشوط في الحياة ، الماضي مضى ، والقادم بعلم الغيب ، وما لنا الا الحاضر .

وتنتبه نرجس الى أن روجدا لا تتحدث أبداً عن ماضيها ، ولا تنشغل بالمستقبل ، ولا تبوح بأسرارها الشخصية إلا ما جاء عرضاً ، إنها امرأة تعيش حاضرها بالقول وبالفعل ، وتجعل من أيامها عملاً متواصلاً لا تخرقه سوى الضحكة والطرفة :

- اسمعي يا نرجس ، ما رأيك لو جلبتُ ديكاً آخر لنرى ماذا يفعل صاحبنا الديك هذا؟

وفي اليوم التالي ، عادت من السوق بديك جديد ، كانت نرجس ما تزال تعمل بالمزرعة ، نادت عليها ووقفتا أمام قن الدجاج ، طشت الحبوب وأنزلت الديك ليشارك في الوليمة ، فتوقف الديك الأول عن الطعام وهو يتطلع الى الديك الجديد الذي انهمك بالطعام كأنه لم يأكل منذ عدة أيام ، وكلما

اقتربت المسافة بينهما باعدها الديك الأول بالزعيق ، وبعد الأكل والشرب اقترب الديك الثاني من إحدى الدجاجات ، وقبل أن يقوم بأية حركة تقدم منه الديك الأول ، نفش ريش رقبته وصفق جناحيه وقاتله بشراسة ، محاولاً الوصول الى عينيه ليفقأهما ، ومواصلاً نقره في أي مكان تحت مرمى بصره ، أو قافزاً على ظهره غارزاً منقاره المدبب في رقبته ، حتى أدماه وأسقطه أرضاً غارقاً بدمائه .

بدت روجدا سعيدة لهذا العراك ، على العكس من دجاجاتها اللواتي أحزنتهن النهاية لديك جديد سرّهن في البداية مجيئه ليحصلن على المزيد من حقوقهن المهدورة وراء الريش المنفوش والنظرة المتغطرسة لديكهن المغرور .

حملت روجدا الديك المغلوب لتداوي جراحه ، وقررت أن تبني له قناً في الجهة القصية من المزرعة وتأتيه بعدد من الدجاجات :

- شوفي يا نرجس ، حتى الديك يدافع عن (عرضه) في حين هناك رجال يدفعون نساءهم الى الرذيلة .

مثل فرس جامحة لا تتوقف ، هكذا هي الأيام تركض ، على حافات الزمن المسننة تركض بالمخلوقات ، تصبح شهوراً وتتشكل السنين قاحلة وجافة ، تتراكم الحكايات ، وتصبح الوجوه الحبيبة من حصة الذكرى التي تستقر في القلوب قبل الذاكرة .

وأخبار البلد عموماً لا تسر ، كأن الأيام تسير فيه عكس اتجاه حركة الحياة ، وكأن الخوذة على الرؤوس رمز لا يجوز المساس به ، يجب أن تكون ملتصقة بقحف الجمجمة ، واللون الزيتوني علامة رائجة من علامات الموضة ، أما الأحلام فهي محض أضغاث ، لماذا تحلم ، هناك من يحلم بدلاً عنك ، وسيأتيك الغد بما يشاء غيرك أن يرتبه لك ، أنت عاجز عن أي حلم ، هم من يحلمون على وسائد الريش وما عليك سوى أن تضع الخوذة على رأسك مزينة بكل أنواع الكوابيس ، ثم ، لمن تحلم ولماذا تحلم؟ الحلم ترف لا تستحقه . .تريد فسحة من أمان لحياتك؟ من قال لك بأن حياتك ملكك؟ إنها ملك السلطان ، هو وحده من يقرر متى تتنفس لتستمر ومتى تتوقف أنفاسك ، أنت الذي يجب أن تموت ، ومن حقه عليك أن يعيش أطول مما عاش أهل الكهف ، لكن النهايات لها حدود مهما استطالت ،

حتى وإن جاءت بعد دهور ، فهذا أفضل من أن لا تأتي أبداً .

لذلك يبدو مستغرباً أن تهتز الأرض ، هل تحرك قرنا الثور وأسقط حمولته عليها فانشقت بفعل زلزال رهيب؟ أم إنها القيامة التي نسمع بها ولم نصدق حدوثها؟ يا أيها الثور الخرافي لماذا لم يتحرك قرناك قبل الآن؟ قبل أن تحترق الأجساد وتتشظى بفعل سنوات الحروب الماضية؟ قبل أن يختفي من اختفى؟ قبل أن تبتر الصواريخ أيدي وأرجل الشباب والأطفال فيعيشون ناقصي أطراف ومضطربي نفوس؟

لكن الأمر حدث ، والنهاية أعلنت عن قدومها أخيراً . . ومثل شيء يسقط وأنت طيلة عمرك تظن بأنه راسخ ومتجذر ولا يمكن للعواصف العاتية أن تقتلعه ، ثابت فيك وعليك وحواليك ، من فوقك ومن تحتك ، وكنت ترتعب من عيونه وعسسه الذين تغوّلوا مثل السعالي ، وتسللوا تحت جلدك ، حتى كاد جلدك ينكرك ، وأنت تعيش القلق في بيتك ، وفي الشوارع التي تمشي عليها ، يلاحقك في سرير نومك وفي مناماتك ، ويفرض عليك الجزية لأنك تشاركه الهواء الذي يتنفسه ، زرع فيك الخوف وسلب منك الروح حتى كفرت بالوطن ، ورحت تبحث عن أية وسيلة لتنفذ منها الى أوطان بديلة ، لا تريد زعرور الوطن ولا تينه ، تريد فقط أن تعيش في أمان قبل أن تبتلعك الحيتان . . سقطت الحيتان أخيراً .

وأخيراً وقع الزلزال ، صاعقاً ، مجلجلاً ، وسقط عرش

السلطان ، تهاوى من أول مطرقة ، اشتعلت الأرض والسماء بالرصاص والصواريخ ، واختفى السلطان الذي كانت كلمات الشجاعة والبطولة لا تفارق شفتيه ، يزقها ليل نهار ، ويسقط بفعلها أولاد الخايبة على السواتر وفي طرق الموت ، ينصهرون مع الحديد ويختفون بلمح البصر من الوجود ، كأن ما ولدتهم أمهاتهم .

انهارت الأمور على نحو متسارع ، ما عاد للدولة من وجود ، اختفى الرئيس وتبخر الجيش وتهاوت جدران الخوف ، وخرجت الوثائق المرعبة التي توثق الجرائم على مدى السنوات الماضية .

ومن جهة أخرى انتشرت صحون الستلايت بسرعة عجيبة ، وتحمّست روجدا حينما رأت على شاشة تلفزيون جيرانهم فظائع ما يحدث فاشترت صحناً ركبه لها أخوها دلير ، ما عادت الأسرار أسراراً ، تهتّك كل ما كان سرياً وانكشف ، أطنان من الوثائق أحرقها المسؤولون قبل فرارهم ، وأطنان أخرى صارت من حصة المحتل الأمريكي ، وأخرى بيد اللصوص المحترفين ، كما انتشرت على الأرصفة آلاف الوثائق للبيع بأي ثمن .

كانوا يسجلون ويصورون جرائمهم أولاً بأول ليستمتعوا بعذابات الضحايا بمشاعر من سيعيش الى الأبد ، يدونون كل شيء ، الإعدامات والاختفاءات وطرق القتل والتعذيب

الوحشي وتهجير الناس وهدم البيوت ، ومن خلال بعض الوثائق تكشفت الكثير من المقابر الجماعية ، هرع الناس الى الدوائر الأمنية والسجون والمعتقلات ومكاتب المخابرات والمقرات الحزبية ، نبشوا الملفات السرية وأخرجوا الحقائق المريضة لكي لا تموت ، من رأى ابنه أو أخاه أو أباه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، أو يُفجر بوضع ديناميت على صدره ، أو يرمى الى كلاب مفترسة جوّعوها عدة أيام ، أو يضعونه على حاجز موثوق الأيدي والأرجل ومعصوب العينين ، يقطعون لسانه ثم يقطعون رأسه فيتلقفه أحدهم ويرفعه عالياً ويهزج أمام جمع من رؤساء العشائر ليكون عبرة لهم ، أو يضعونه على خشبة وهو حي ويهيلون عليه طبقات الاسمنت مع بقاء عينيه ليرى مصيره الإسمنتي حتى آخر لحظة وآخر نفس . . . جرائم لم يتخيلها العقل البشري ، كل ذلك ظهر في سيديات عُرض بعضها على شِاشات الفضائيات .

شتلت نرجس نفسها أمام التلفزيون لمتابعة الأخبار ، طائرات ورصاص فرح ورصاص قتل ينهمر بلا هوادة ، جثث وانفجارات تطال كل شيء ، الدوائر الحكومية والثكنات العسكرية والبيوت الآمنة والمستشفيات ومزارع الدواجن والأسواق والجوامع والمدارس ، فتزيدها حيرة ، لكنها في المحصلة النهائية تدرك أن عجلة الزمن لن تعود بالنظام الى ما كان عليه ، وأن عصراً آخر احتل المشهد ، عصراً ما يزال في أوله ولم

يُعرف بعد شكله ، لكنه أعطى إشارة في اتجاهه العام يوم وصلت الدبابات الأمريكية الى بغداد وصعد جندي على إحداها ليلف العلم الأمريكي حول رقبة تمثال الرئيس في ساحة الفردوس ، ولما اعترضت الجماهير استبدله بالعلم العراقي ، ثم لف سلسلة حديدية حول رقبة التمثال لتسحبها دبابة أمريكية من الطرف الآخر ، وظل تمثال الرئيس يقاوم أطول وقت ممكن قبل أن يتهاوى من فردوسه ويسقط تاركاً على رأس القاعدة قدميه المجوفتين .

اختفى الرئيس واختفت من بعده جدارياته ، صارت ركاماً في غمضة عين ، استخدموا كل ما يمكن من إجل إزاحتها في جميع مدن العراق ، بالمعاول والفؤوس والجرافات والدبابات ، كأنهم ينتقمون من الحجر عن حقبة سلبت منهم أعمارهم ، ثم بدأ النهب والسلب ، من قصور المسؤولين الى الدوائر الحكومية ، المدنية منها والعسكرية ، كل شيء قابل للحمل حملوه ، الأثاث والأدوات الكهربائية والمتعلقات الشخصية واللوحات والتحف والنقود والوثائق ، لكن ما آلم القلوب حقاً هو سرقة المتحف الوطني بكل كنوزه ومقتنياته .

تتابع نرجس وروجدا ذلك التقرير المفجع ، تتهشم القاعات الزجاجية ، وتمتد أيادي اللصوص المدرّبة الى أثمن ما موجود ، آلاف القطع الأثرية والأختام الاسطوانية والمسكوكات والحلي الذهبية ، لعصور سومرية وبابلية وآشورية ، تاريخ وحضارة بلد

ممتد في عمق الزمن يُسرق بلا رحمة . . سرقات لا يمكن أن يقوم بها إلا لصوص منظمون ومدربون كانوا ينتظرون الضوء الأخضر فأعطي لهم وقاموا بجريمتهم أمام أعين الجنود الأمريكان .

لم تستطع روجدا إيقاف نهر الدموع الذي انفجر من عيون وقلب نرجس ، فبكت هي الأخرى ، ثم حاولت أن تخفف من آلام نرجس بالقول : ما فائدة اللقى والآثار إزاء ما يحدث للإنسان؟ ها أنت ترين الجثث تعرضها الفضائيات من دون حرمة لأصحابها ، ومن دون حساب لمشاعر الناس ، ألم تري المقابر الجماعية التي بدأت بالانكشاف؟

يا ألله . . . ما هذا العدد الهائل من رفات الضحايا؟ أيعقل أن مقبرة واحدة تضم أكثر من خمسة عشر رفاتاً ، كانت أول مقبرة تُكتشف في المحاويل ، أطفال ونساء وشيوخ وشباب . . ذوو الضحايا هرعوا وحفروا دون دراية ، نبشوا واستخرجوا العظام بحثاً عن متعلقات شخصية للتعرف عليهم فضيعوا الأدلة التي تدين مرتكبي هذه المجزرة ثم بدأت مقابر أخرى بالظهور ، من شمال الوطن الى جنوبه ومن غربه الى شرقه . . أبعد هذا تبكين يا نرجس على الحجارة؟

وكانت الحدود قد انفتحت ،هرب حراسها وتركوها ، فدخل أقوام شتى جاءوا من أصقاع الدنيا ، يزرعون الرعب في القلوب ويوزعون الموت ذبحاً وأحزمة ناسفة وسيارات مفخخة

في الطرقات والأسواق والمطاعم والمباني والجوامع وحفلات الأعراس وسرادقات العزاء .

***

وبعد أيام ، انكمش قلب نرجس وراحت تحدق بالصورة المعروضة على شاشة التلفزيون ، وتتابع الخبر الذي ينقله مذيع إحدى القنوات العربية عن منفذ الانفجار الرهيب الذي وقع في ساحة الطيران ببغداد ، كان الإرهابي يقود سيارة من نوع بيك آب ، اقترب من العمال المساكين وأشار لهم فهرعوا متدافعين ، كل واحد يأمل بفرصة عمل تؤمّن لعائلته طعام يومها ، وعادة ما يأتي رجال بسياراتهم فيأخذون ثلاثة أو أربعة عمال ، لكن سائق البيك آب صاح بأعلى صوته : لا تتدافعوا ، اصعدوا جميعاً الى السيارة ، لدينا مشروع كبير . . أي مشروع في مثل هذا الجحيم؟ لم يسأل أحدهم مثل هذا السؤال فالجوع كافر ، حملوا معدّاتهم واستقروا في بطن السيارة ، وقبل أن تتحرك بهم فجّر الإرهابي نفسه فتطايرت الأشلاء في الاتجاهات كافة ، كان انفجاراً مروعاً راح ضحيته العشرات من عمال البناء والمارة .

صُعقت نرجس ، ليس لحجم الضحايا وجثثهم المتناثرة فقط ، بل لصورة الإرهابي التي ملأت الشاشة ، والذي توصلت الجهات المسؤولة الى اسمه . . وضعت يدها على فمها لكي لا

تصرخ ، إنه خالها بندر الذي جاء من أمريكا ليبحث عن جنته بين أجساد الفقراء الأبرياء ، كتمت صرختها لكي لا تسمعها روجدا التي كانت في هذه اللحظة تحضر الغداء ، ولم تضع لقمة واحدة في فمها حين حضر الطعام ، كانت تبكي بلا انقطاع ، وكلما هدّأتها روجدا عادت نرجس للبكاء ، فهددتها بأنها ستلغي الستلايت لكي ترتاح من هذه المصائب ، وأغلقت التلفزيون حاثة نرجس على الخروج معها الى البراري لجمع النباتات البرية إلا أنها اعتذرت ، لم يعد للطبيعة ألوان في مثل حالتها .

***

تداولت الأمر كثيراً مع نفسها أولاً ، ثم مع روجدا ودلير وكاكا طارق ، عاشت صراعاً بين الرغبة في العودة الى بغداد بعد زوال الأسباب التي كانت تمنعها ، وبين البقاء في السليمانية بين (أسرتها) التي آوتها ووجدت بينها وبينهم مودة ورحمة . . كاكا طارق ودلير كانا ضد قرار عودتها ، روجدا أمسكت العصى من الوسط واقترحت أن تقوم بزيارة ثم تعود الى السليمانية ، توافق الجميع على الزيارة في النهاية ، لكن كاكا طارق اعترض على التوقيت ، قال لها بأن بغداد غير آمنة في الوقت الراهن ، لا يمر يوم من دون تفجيرات وخطف وسلب تحت تهديد السلاح ، العصابات تصول وتجول وليس من رادع

لهـا ، لذلك عليـهـا أن ترجىء الزيارة حـتى تهـدأ الأوضـاع ، ووعدها بأنه سيساعدها على السفر في الوقت المناسب .

وانتظرت . . . . لكن انتظاراتها امـتـدت أكـثـر مما يحـتـمله صبـرها ، لأن الأوضاع لم تهدأ . . . . لقد غيـروا فرداً وأسـقطوا دولة ولم يفكروا بإيجـاد البـديل . . . . لعل البـديل ، هذه الفوضى التي يسمونها بالخلاقة وحين تنتهي بعد أمد بعيد سيشكلون نوع النظام الذي يخدم مصالحهم؟

ويومـاً بعـد يوم بدأت نرجس تعيـد حسـاباتـها ، ربما لتـقنع نفسها ، ولتذعن لنصيحة كاكا طارق . . وتتساءل : لمن ، ولأية خسارات ستعود؟ وبدت الإجابة عصية عليها ، أو أنها لا تريد الإفصاح بها حتى لنفسها ، شيء من عناد الماضي ركبها ، لكنه تداعى حين لمست أعمق أعماقها واعترفت أخيراً ، بأن الأمكنة التي احتفظت بذكرياتها هي وحدها من تريد زيارتها ، فهي ذخيرتها الطازجة في أيام قحطها ، ربما رغبة تشبه نزوة أن تمر على تراب تلك الدروب ، أن تجلس تحت ظلال شـجـرة في متنزه الزوراء ، أن تطرق الباب على أصحاب البيت الذي كان بيت امها وتستأذنهم بالصعود الى السطح لأنها تركت شيئاً هناك ، وتذهب بعد ذلك الى شارع المتنبي لتدلف الى مكتبة مخلص فاروق ، وتسأله هل وجد عائلة يوسف وسلمها وثيقة إعدامه .

لكن الوقت ليس في صالح تحقيق الرغبات ، هذا ما يجب

أن تدركه ، احتكمي لعقلك أيتها المرأة وليس لأحاسيسك ، وإذا كان لديك الآن شيء فلا تضيعيه .

وبقيت الرغبة مكبوتة ، فقد كان النفق المظلم أطول مما كانت تعتقد في ليل بغداد .

تعودت نرجس أن تشغل نفسها بالعمل لتخفف من وطأة الذكريات الحزينة والصور المؤلمة التي تهاجمها عندما تستريح ، لا حصة في ذكرياتها لمؤنس الشاعر ، لو تكررت حياتها ألف مرة للفظته بلا تردد ، تنهك جسمها لكي يخمد في ساعات الليل ، لكن الليل يرميها الى ذكرياتها مرة أخرى ، ويطرح عليها جملة تساؤلات تؤرقها : ماذا تفعلين هنا يا نرجس؟ أنت هنا بلا روح ، هل ستنتظرين شيخوختك بعيداً عن أمكنة الروح؟ ها أنت تخلفين السنين وراءك ، بلا أحلام ، بلا أمنيات ، بلا زوادة تحملينها معك الى رحلتك الأخيرة في الحياة ، لأنك لم تفكري أصلاً بما سيحدث حين تخونك أصابعك فلم تعودي تمسكي بشيء ، لديك الآن أمنية ، فقط أمنية ، تؤجج رغبتك بالعودة ، تحاولين أن تطفئيها فلا تنطفىء ، إذن ما عليك سوى القيام بتحقيقها ، لكِ الكثير هناك فلماذا تغالطي نفسك؟ لديك الأمكنة ، والذكريات ، والعمل في جانب من جوانب رد الحقوق لأصحابها ، فإن لم تجدي نفسك هناك يمكنك العودة حيث تجدينها .

تُبعد الرغبة التي تراودها لكي لا تتعمّق وتتعملق في رأسها ، تفعل ذلك الى حين ، لكن رغبة العودة الى بغداد تلح

عليها ، لم تعد تقنع نفسها بالتأجيل مرة بعد مرة ، تنتظر بارقة هدوء لكن البارقة لم تبرق ، يوماً بعد يوم ، شهراً بعد شهر ، تنمو الرغبة مثل بذرة تقاوم لتجد لها منفذاً تخرج منه الى الشمس ، ثم صارت تثقل عليها مثل صخرة هائلة تدفعها لتعيدها الى مكانها الأول ، فتحولت الى عناد لم تستطع انتزاعه من رأسها على الرغم من التحذيرات التي واجهتها من روجدا ودلير وكاكا طارق .

كرروا عليها المخاوف : الفوضى تضرب في الأرض ، الأميركان يحتلون البلاد ، عصابات القتل ملأت الشوارع ، أحزاب غريبة عجيبة ظهرت تتقاتل فيما بينها من أجل أن تحتل المشهد ، مليشيات منفلتة والدولة غائبة ، ليس هذا ما ناضلنا من أجله وما كنا نتمناه ، لقد فقدنا البوصلة وغرقت السفينة ولا ندري ما سيحدث غداً أو بعد غد .

لكنها وضعتهم أمام عنادها بالقول : لقد عزمت على السفر الى بغداد ، إن لم يساعدني أحد منكم سأغامر بنفسي مثلما فعلت أول مرة .

وهذه المرة لن تبحث نرجس عن مفاتيح لتفتح الأبواب ، فالأبواب كلها مشرعة من أقصى شمال البلاد الى أقصى جنوبها ، واللصوص يسرحون ويمرحون وكذلك تجار الموت ، قالوا لفرعون من فرعنك ، قال : لم أجد أحداً يصدني .

***

ارتدت نرجس ثياباً سميكة ووضعت شالاً صوفياً على أكتافها ، وبدأت رحلة العودة في صباح بارد تكاثفت غيومه ، تعرف أنها ماضية بلا ضمانات ، غادرت القرى والغابات والمزارع والحقول والجبال والشلالات بإحساس أنها لن ترى هذه الأمكنة مرة أخرى .

اصطحبها كاكا طارق حتى أوصلها الى مرآب تقف فيه ثلاث سيارات أجرة ، لم يغامر أصحابها بالسفر الى بغداد أو أية مدينة من مدن الوسط والجنوب ، لكن كاكا طارق كان قد اتفق مع سائق آخر يعرفه ويثق به ، يقف في نهاية المرآب بانتظاره ، شدد عليه أن يعتني بنرجس ، يوصلها حيث تريد ، وإذا قررت العودة يعيدها . . رافقتكِ السلامة ، قال لها . . وانطلقت السيارة .

***

كأن الأرض غير الأرض ، حُفر لآثار قنابل ، هياكلُ عربات وسيارات محترقة على طول الطريق ، أشجار محترقة ، نخيل مقطوع الرأس ، أبنية متهدمة ، بيوت مهجورة ، رايات ملونة لأحزاب لم نسمع بها ، بوسترات وجداريات لرجال من كل صنف ولون بعمائم وسدارات ويشاميغ ورؤوس حاسرة ، ظلت عيونهم تتبع نرجس على طول الطريق ، والهواء مزكوم برائحة البارود والدماء المتخثرة .

خوف لا يفصح عن نفسه ينزوي في الطرقات كأنه هو

الآخر خائف من قادم الأيام ، ودبابات أمريكية مُفزعة ومفزوعة ، تمضي بسرعة أو تجوب الشوارع موجهة أفواهها للناس بأشرس الأسلحة .

غريب أنها تقرأ بيت شعر للمعري خُط بأصباغ البوية على جدار أحد البيوت المتهدمة ، كأنه رسالة موجهة إليها تحديداً :

لا تهيمي فتلك رحلة تيهٍ   تسلب الروح من لذيذ الرّقادِ .

وسيطرات عند مفترق الطرق لجنود لا يحملون لون تراب الأرض ، يوقفون السيارات ويدققون في الأوراق قبل أن يسمحوا لأصحابها بالمرور .

نظرت إليه نرجس غير مصدقة ، جندي أمريكي يشهر سلاحه يقف قرب دبابته التي يعتليها جنود أمريكان ، أشار للسيارة بالتوقف ، الى جواره شاب عراقي يقوم بدور المترجم . . قدم السائق أوراقه ، بعد دقائق رفع يده كإشارة للمرور ، مع عبارة : welcome

هو الذي يقول لأبناء البلد أهلاً ، كأنه ابن هذا التراب وهم الضيوف المشكوك بأمرهم ، ومرت السيارة بالمزيد من السيطرات ، والأبنية المحترقة ، وتجاوزت مطبات وحفراً كثيرة ، واضطر السائق الى استدارات عديدة بفعل الحواجز الإسمنتية العالية ، ليجتاز أخيراً بوابة بغداد ، ويقود سيارته بطرق متعرجة ، وأخرى مبتورة ، وأحياناً يصل الى طرق موصدة فيرجع ثانية ، وفوق هذا الخراب ترتفع لافتات وصور وجداريات

القادة الجدد بأحجام كبيرة ، تتصدّر الدوائر والمؤسسات والشوارع والساحات ، بل وحتى السيطرات . . وسماء بغداد ما تزال كئيبة ، ووجوه أهلها بائسة ويائسة تغمرها الحيرة ، وأشياء كثيرة تبدلت نحو الأسوأ حتى بدت الحياة على كف عفاريت أكثر جنوناً من عفريت الأمس .

- من فضلك ، أريد الذهاب أولاً الى شارع المتنبي .

قالت نرجس فرد السائق :

- سنعبر بعد قليل جسر باب المعظم ومنه الى شارع الرشيد ، هذا إذا سمحوا لنا .

- وإذا لم يسمحوا؟

- سنبحث عن طرق أخرى .

السماء كتلة غيوم ودخان ، والأجواء مريبة ، والازدحام شديد ، والحواجز الأمنية لا تُعد ولا تُحصى . . والشوارع مقطّعة كأنها أشلاء فقدت بريقها ، قسمتها السيطرات لتكون ممراً واحداً تسهل السيطرة عليه ، وشوارع كثيرة مغلقة تماماً بكتل كونكريتية فيضطر السائقون الى ولوج شوارع فرعية للوصول الى غاياتهم ، والمناطق معزولة عن بعضها بجدران عازلة ، وثمة دخان يتعالى من بناء على الضفة الأخرى من النهر ، بالقرب من مدينة الطب ، وجنود أمريكان يقفون في وضع الاستعداد في السيطرة التي نُصبت في رأس الجسر من جهة الكرخ ، والكل خاضع للتفتيش والتدقيق وللشك والريبة قبل اليقين ،

وبعد جهد جهيد عبرت السيارة جسر باب المعظم ، لكنها لم تستطع السير الى جهة اليمين منه حيث بناية وزارة الدفاع القديمة وشارعها الذي يفضي الى بداية شارع الرشيد إذ وُضعت الكتل الكونكريتية والأسلاك الشائكة قبل السيطرة ، وأصوات تحذرك وتشير إليك أن تستدير فالرشاشات جاهزة لمن يخرق الأوامر ، وما كان من السائق إلا أن يتوجه الى مدخل شارع الجمهورية ليلتف باتجاه ساحة الميدان ومنها الى شارع الرشيد ، لكن سيطرة أخرى أوقفته عند مدخل ساحة الميدان ، وهذه المرة لم يسمح له بالمرور .

- من أين إذن نذهب الى شارع المتنبي؟

قال السائق فرد عليه شرطي السيطرة الملثم :

- هل ما زال أحد يشتري الكتب في هذه الأيام؟

بدا ساخراً وهو يقول ذلك ، فقالت له نرجس :

- أريد الوصول الى أخي ، إنه يعمل هناك .

فقال لها بصوت حاسم :

- ممنوع مرور السيارات ، وممنوع أيضاً ركنها قريباً من هذه المنطقة .

ومع كثرة الممنوعات ترجلت نرجس وقالت للسائق :

- أخي ، مهمتك انتهت ، لا تخف عليّ ، سوف أصل مشياً .

اقترح عليها أن تمضي معه الى أقربائه في الزعفرانية ،

ترتاح من تعب الطريق ، ثم تأتي في يوم آخـر ، لكنهـا كـانت مشحونة بعناد غريب ، اعتـذرت ، وطلبت منه رقم هاتفه فقد تحتاج اليه في وقت آخر . . . . . وافترقا .

على أرض محفّرة وبخطى متوجسة مشت ، تحث الخطى كأنها هاربة من شيء غامض يلاحقها ، اجتازت بعض البرك التي تركتها الأمطار ، ماتزال تتذكر كل شيء ، فياما مشت من هنا الى شارع المتنبي ، يصحبـها صوت أم كلثوم من المقهى المسمى باسمها . . بدا كل شيء غريباً حتى وجوه العابرين ، تشم رائحة موت ، وتحس بأرواح تطوف نائحة ، وتسمع دويّ انفجارات لم تبدأ بعد ، ويلوح لها القتلة مختبئين ومتربصين في الزوايا ، بسواطير ومسدسات كاتمة وأحزمة ناسفة .

ثمة عربات خشبية جاءت من طي النسيان لتعلن عن وجودها بعد انقراضها من المدن ، تدخل وتخرج على راحتها ، وفوجئت برجل يسحب حبل حماره المحمل بالأغراض ، وبسطات احتل أصحابها الأرصفة المثلمة ، وكثير من المحال والمطاعم مغلقة ، والأزبال مكوّمة ، والفضاء متخم بروائح نتنة ، وبعض الأسيجة مهدمة وما تزال قطع الإسمنت والطابوق في الزوايا ، لابد أنها سقطت من الأبنية العتيقة بفعل الانفجارات المتكررة .

قبل أن تواصل السير الى مكتبة مخلص فاروق عبر شارع الرشيد تراجعت الى الوراء كأنها نسيت شيئاً ، ثم توقفت

وأنصتت ، أين ذاك الصوت الذي كان يصدح كل ساعات النهار وحتى منتصف الليل من مقهى أم كلثوم؟ لماذا هجرته السيدة؟ عادت إليها ذكرى ذلك اليوم الذي دخلت فيه المقهى بصحبة يوسف ، كان تحدياً لهما حين قررا أن يكسرا القاعدة الذكورية لرواد المقهى من عشاق أم كلثوم . . فجأة تطلعت لهما العيون ، وتوقفت قرقرات الأرجيلات وضربات الدومينو ، ولم يتوقف صوت السيدة وهي تصدح بأغنية (أنساك) . . جلسا في إحدى الزوايا مترعين بالمتعة ، العيون تترصدهما وتحدق بهما مدهوشة ، ربما فسّر أحدهم هذا الدخول الغريب بأنه وقاحة ، أو تهيأ آخر للاحتجاج وطالب صاحب المقهى أن يخرجهما وإلا سيتولى هو المهمة ، إذ كيف تقتحم امرأة عالم الرجال وتتحدى العرف السائد بصحبة عشيقها؟ لكن أحداً لم يعترض جهاراً ، وشيئاً فشيئاً عادت ضربات الدومينو وقرقرات الأرجيلات . . . ومع كلمات الأغنية شربا الشاي وخرجا من المقهى بإحساس المنتصرين .

فأين اختفى صوت السيدة؟ ومن أخفاه بعد هذه السنين؟ ولماذا تنظر إليها عيون الرجال في الشارع كأنها امرأة هبطت من كوكب آخر؟

أخذت جانب الرصيف ، يحدوها أمل بأن تصل الى مكتبة مخلص فاروق وتراه وتعيد نبض ذكرياتهما المشتركة ، تجلس على الكرسي الذي كان يوسف يفضله ويجلس عليه من بين أربعة كراسٍ ، ثلاثة منها متشابهة وبلون بني والرابع

قماشته مخططة بالألوان ، الأبيض والأسود والأحمر .

الرصيف مشغول بأكداس بضائع مفروشة ، وحزم خضار وفواكه ، وأحذية بلاستيكية ، وملابس مستعملة ، وأصوات باعة ، وضجيج يصم الآذان ، وحمّالون ، وأطفال شحاذون يستعطفون المارة لا شك أنهم يتامى الإرهاب ، ومعوّقون يسيرون على عربات أو على أقدام اصطناعية ، ووجوه جزعة ، وعيون غادرها البريق . . كل هذه الفوضى في الشارع كما لو أنها تطعنه وتثقّب قلبه دون رحمة .

سارت تحت الرواق العتيق ، ظهراً كان الوقت ، تتنفس الدخان ، تتطلع من حين لآخر الى الأبنية الأثرية ، بشناشيلها التي شاخت أكثر مما يجب وانثلمت ذكرياتها وأفل سطوعها ، تكاد تشك أنها في شارع الرشيد قبلة شوارع بغداد ، فقد بدا لها مثل شيخ تعب من رحلة طويلة وداهمته الأمراض فلم يعد أمامه سوى انتظار لحظة الموت وحسرة أنْ لا يشيعه أحد الى مثواه الأخير بما يليق بماضيه البهي العريق .

تتساءل : أين رائحة (كعك السيد) ؟ وأين محال المشغولات الفضية؟ وهل مايزال (شربت الحاج زبالة) يروي الظمأ ، والسينمات تستقبل زبائنها؟ والنساء السافرات . . . . . . أين النساء السافرات؟ إنها لا ترى غير نساء متلفعات بعباءاتهن السود أو بجببهن ورؤوسهن المغطاة ، وهل [illegible] مكتبات المتنبي وأرصفته وبسطاته مزحومة بالكتب وال[illegible]

وصوت نعيم الشطري صادحاً ليعرّف بأمهات الكتب ، أم لم يعد الكتاب خير جليس؟ تكاد تشم رائحة الورق عن بعد بمخيلة الأمس وهي تسير نحو هدفها بتعويذة وجه يوسف الذي كان حضوره كثيفاً ، وصوت أم كلثوم الذي انبثق من أعماقها على الرغم مما ترى :

سنين ومرت زي الثواني في حبك انت . . . وان كنت أقدر أحب ثاني أحبك انت .

لكن رجلاً صرخ بها فارتعش صوت أم كلثوم وتوارى : غطّي راسك يا مره .

التفتت إليه مذعورة ولفّت رأسها بالشال حتى من دون أن تفكر بالرد عليه . . الخوف الذي ظنته غادر أعماقها بعد سقوط النظام بدأ يتسلل إليها بشكل آخر من ذلك الرجل الملتحي الذي ظل يدردم ويخزرها لئلا تعود وتكشف رأسها ، فاضطرت للتوقف أمام عربة ملابس مستعملة بحجة الشراء لكي تكون بعيدة عن مرمى نظره .

فجأة حدث هرج ومرج ، ركض الناس باتجاهات مختلفة ، ثمة رجل يركض ومن خلفه يركض رجال شرطة ليمسكوا به ، ودوّى رصاص ، وعلا صراخ ، وتطايرت بضائع ، وتدافع الناس ، كل منهم يبحث عن زاوية آمنة أو يدخل زقاقاً متفرعاً من الشارع لعلّ الموت القادم يُخطئه ، سقط شاب برجل صناعية كان يجاهد ليصل الى مكان آمن فأعانه رجل وأسرعا ،

استشعرت نرجس خطراً واضطربت ، وجدت نفسها محشورة في المكان ، ملتصقة بجدار دكان صغير مع مجموعة من الناس المضطربين الذين لم يترك لهم الفزع فرصة تحريك أقدامهم ، اندفع الرجل المطارد باتجاههم ، ثمة طفل أفلت من بين المحاصرين ، وركض مسرعاً ليختفي في الزقاق المجاور ، صرخت أمه واندفعت وراءه ، وكانت عند منتصف المسافة حينما صاح المطارد بأعلى صوته : الله أكبر . . وفجّر حزامه الناسف ، فتطايرت جثث وقطع بشرية وحديدية ومعدنية وحجارة فوق سطوح وبالكونات البنايات وعلى أرض الشارع ، وتهشمت واجهات زجاجية ، وتدحرجت رؤوس ، وتطشرت أصابع وأقدام ، والتصق اللحم بالجدران وعلى الإسفلت ، وتبخرت أحلام ، وطافت أرواح هائمة لا تعرف لماذا انسلخت عن أجسادها ، واندلعت حرائق ، وهوت بعض الواجهات للأبنية القديمة ، وتعلّقت رجل صناعية في قضيب حديدي لبالكون هوى نصفه الى الأرض ، وقبل أن ينجلي ظلام الدخان أو تنطفىء نار الموت لتلملم الأشلاء شق صوت رجالي مذعور كل الأرجاء كأنه يخرج من حنجرة عملاقة : إخوان تفرقوا سيحدث انفجار آخر . . تفرقوا . . تفرقوا . . تفرقوا . . . تف . . . .

الأول من أيلول 2016

هاملتون

إصدارات المؤلفة

في بغداد

- أعتذر نيابة عنك . . قصص ١٩٩٣
- قاب قوسين مني . . قصص ١٩٩٨

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- قاب قوسين مني . . قصص ط٢ ، ٢٠٠٠
- بنت الخان . . رواية . . ٢٠٠١
- وتلك قضية أخرى . . قصص ٢٠٠٢ وهي المجموعة الفائزة بالجائزة الأولى لأدب المرأة العربية عن أندية فتيات الشارقة ١٩٩٩
- كل شيء على ما يرام . . قصص ٢٠٠٢
- ما بعد الحب . . رواية ٢٠٠٣ ترجمت الى اللغة الانكليزية عن دار سيراكيوس يونفيرستي بريس الأمريكية ٢٠١٢
- في الطريق إليهم . . رواية ٢٠٠٤
- مطر الله . . رواية ٢٠٠٨
- حبيبي كوديا . . قصص ٢٠١٠
- هدية حسين في خمس روايات . . قراءات لخمس من روايات الكاتبة بأقلام نقاد عراقيين وعرب ٢٠١١

- أن تخاف . . رواية ٢٠١٢
- صخرة هيلدا . . رواية . . ٢٠١٣
- ريام وكفى . . رواية . . ٢٠١٤ . . وصلت للقائمة الطويلة في البوكر ٢٠١٥
- إحساس مختلف . . قصص . . ٢٠١٤
- أيام الزهللة . . رواية . . ٢٠١٥

عن دار نارة للنشر والتوزيع، عمان

- زجاج الوقت . . رواية ٢٠٠٦

عن دار ورد للنشر والتوزيع، عمّان

- شبابيك . . قراءات في القصة والرواية . . ٢٠٠٧

عن دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان

- في البيت المسكون . . قصص . . ٢٠٠٨
- نساء العتبات . . رواية . . ٢٠١٠

عن دار دوسييه ستوديو، بلغراد

- وتلك قضية أخرى . . . مترجمة الى اللغة الصربية . . قصص مختارة من أربع مجموعات قصصية للكاتبة . . . ترجمة ميلونكا ستوجانوفسكا

WHAT WILL COME



ما سيأتي

لا أحد يلقي عليهم تحية الصباح،

لا يسمعون سقسقة عصفور،

ولا هديل حمامة،

ولا صياح ديك يؤذن لطلوع الشمس،

وليس من أحد يمضي إليهم هناك،

ولا من هناك يأتي أحد منهم.

من هم، وأين الهناك؟ في أي ناحية من نواحي بغداد؟

لماذا تخلت عنهم السماء؟

وكيف استوعبتهم بقعة أرض فعاشوا في اللازمن؟

لا يعرفون كم مضى من أعمارهم وكم بقي لهم.

هم الأحياء الموتى، أو الموتى الأحياء.. لا فرق.

التعساء الذين نسيتهم القداسات،

حاملو الخطايا بلا خطيئة ارتكبوها،

المنسيون بلا قبور تُعلّم ذكراهم إذا جاء أجلهم،

ثم، من يقول إن أجلهم قد حان حين ماتوا؟



ISBN 978-614-419-782-0
9 786144 197820

